صور كاذبة

رواية

أحمد سلطان

الطبعة الأولى

2020م ـ 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

عنـــوان الكتاب: صور كاذبة

اســـــم المـؤلف: أحمد سلطان

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــــداع: 22286 / 2020

الترقيـــم الدولي: 0 - 29 - 6749 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه **التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين**

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه **رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى**

المديـر العام: د. فادية محمد هندومة **المدير التنفيذي: د هبة ماردين**

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

صور كاذبة

رواية

أحمد سلطان

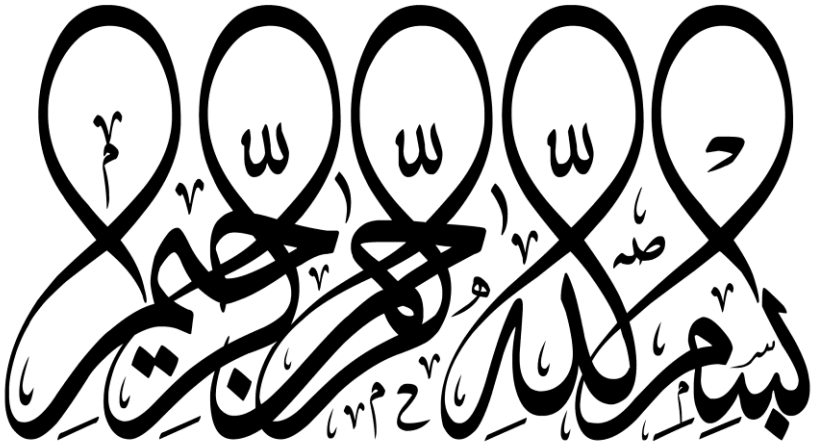
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

مكتشف (الغرفة المظلمة_ القمرة) أو كما أطلقوا عليها الغرب _كاميرا_

مؤلف كتاب (المناظر):

(الحسن بن الحسن بن الهيثم) أو كما اشتهر (الحسن بن الهيثم).

ولد في العراق .. البصرة .. عام (354هـ _ 965م)، توفي في القاهرة عام

(427هـ _ 1038م).

نحن إلى الآن ندين لك بما أنعم الله عليك، اكتشافك سيطر عليَّ فدعني

أفخر بك أنا والعالم من حولي.

أحمد سلطان

****

" من أراد أن يحاكمني...

عليه أن يتفادى أخطائي"

___ بطل الراوية ___

الفصل الأول

القاهرة (1924: 1968م):

مر وقت طويل تبادل كلاهما النظرات مع الآخر ولم يجدا ما يقال، فوضع عم نشأت يده في جيبه؛ ليحاسب عما شربه مع صديقه الصامت ذي النظرة المبهمة، التي تدل على عدم فهم أي شيء يدور حوله، أو تدل على غضبه الشديد منه، لذلك لا يريد أن يتكلم أو يبدي رأيه مثل كل مرة، لكن حُزن عم نشأت كان طاغيًا على مشاعره مما أثار غضبه، جعل صوته يعلو حتى انتبه له جميع السكارى حوله:

_أنا عارف أنك مش هتفهمني ولا هتحس بيا لكن متأكد أن هَيجي يوم وتقول كان عندي حق.

أنهى كلامه عندما تأكد من عدم استجابة صديقه الجالس أمامه في الحانة، طلب الحساب دون أن ينظر إلى النقود التي في حوزته، أعطاها للنادل، ذهب يتعكز على قدميه واضعًا يده اليمنى على فخذه الأيمن منحني الظهر قليلًا إلى أن خرج من الحانة وسلك طريقه.

كثيرٌ منا لا يعلم أن عم نشأت كان يمشي على قدمين سليمتين إلى أن أخذته الأقدار لمحل عمله وهو يمتهن البناء، _المهنة التي ورثها عن أبيه_ أسقطته من (السقالة) التي نصبها بنفسه، لقصر قامته وجسمه الضئيل شعر أنه يسقط من أعلى الأبراج الشاهقة لكنها كانت مسافة لا تتعدى مترًا

ونصف المتر، تسببت له في كسر قدمه، ثم عاهة مستديمة، جعلته يؤمن بغدر الأيام التي شوهت استقامة قدمه وتأخره عن الإنجاب، برغم أن ليس لديهما ما يعوقه، لكن مخاوف الدكتور على زوجته بعد اكتشافه أنها مصابه بمرض في القلب أوقف احتمالية الإنجاب طوال العمر.

انتابته حيرة بين أهله وقلبه، فأهله يحرضونه على الزواج مرة أخرى خصوصًا أنه الابن الوحيد، وقلبه رافض تمامًا كسر قلب زوجته مرة أخرى بعد معرفتها حقيقة مرضها.

كسر التقاليد من أصعب الأشياء لكن الحب لا يعرف القيود، بدأ حبهما مقيدًا يبحث عمن يفك قيوده، من الغريب أن الذي كسر القيود، هي البنت الجريئة نحيلة القوام ذات المفاتن الصارخة المعلنة عن ذاتها من عيون، مقدمة، مؤخرة، تلفتان الانتباه دائمًا، البنت التي أحبت البنّاء العامل لديهم رغم أن عمله لم يدم طويلًا إلا أن حبها وقع عليه من الوهلة الأولى، أما هو فمتى كان يحلم بتلك الفتاة؟!.

تم زواجهما، إلى الآن لم يصدّق ما حدث، عروس الحارة فتاة أحلام الشباب وقعت في حبّ الرجل (الأرزقي) الذي يكبرها باثني عشر عامًا، كم من محاولات من بعض الحاقدين لإيقاف هذا الزواج طمعًا في مالها، جمالها، لكن فشلوا؛ حتى الفتيات اللواتي لا يردن رؤية حفل زفافها وهي ترتدي فستانها الأبيض، لم يستطعن، خابت كل المحاولات ووجدن أنفسهن ضمن الحضور في أروع حفل زفاف حدث في الحارة.

لا نستطيع أن نقول أعين الحاسدين عكرت صفوهما، كادت تنهي الزواج مبكرًا، لأن ما حدث قسمة ونصيب أو كما قالت مريم زوجة عم نشأت عندما علمت أنها مريضة:

ــ قدر ومكتوب يا دكتور، إحنا في إدينا أيه يا حسرة.

ابتسم الدكتور إعجابًا بكلامها، أراد أن يتأكد فسألها عن هذا المرض هل هو منتشر في العائلة؟ فوجئ بالنفي، فأراد أن يجد سببًا مقنعًا، بعد عدة أسئلة علم منها أنها أصيبت في سن العاشرة بحمى روماتيزمية على القلب، أهلها أهملوا في متابعة حالتها وإعطائها حقن المضاد الحيوي مما سبب لها انسدادًا في الصمام (الميترالى)، هذا ما استنتجه الدكتور من أسئلته فاستاء قائلًا:

_هو ده نتيجة الجهل.. يا مريم الحمل خطر على حياتك، لو مش فارقة معاكي حياتك خافي لضغط الحمل يموت الجنين أو يتصاب بتشوهات ولا يورث المرض من بعدك.

****

لندن (**1998**م):

أضاءت من حولي النور الخافت وأنا ما زلت على سريري السابق أتصنّع نومي العميق، شعرت بأنفاسها من حولي، كنت أتمنى أرى ماذا تفعل لكني خفت أن تعلم أني مستيقظ، فيبدأ الشجار وسلسلة من الأسئلة التي حفظتها من كثرة سماعها.

ظلت تتمشى على أطراف أصابعها كراقصة باليه محترفة ما بين ملابسي، أغراضي، من المؤكد كعادتها تفرغ جيوبي، تبحث عن شيء تبدأ منه إهانتي وتوبيخي، لكن أُطفِئ النور، لم تحاول إيقاظي ككل مرة، خرجت، أغلقت الباب خلفها في هدوء غريب كأنها سائرة دون إرادتها بفعل التنويم المغناطيسي، زاد استغرابي، تشوقي، ماذا وجدت جعلها تخرج هكذا؟.

انتفضتُ من فوق سريري كأني أقفز من (على شفا حفرة من نار) بحثت جيدًا في جيوب ملابسي عن المفقود من أغراضي، لم أجد.. جلست أتذكر ما فعلت بالأمس قبل دخولي هنا، بدأت ذاكرتي تتراجع شيئًا فشيئًا.

انتهيت من العمل في آخر أيام الأسبوع في (**Royal Brompton hospital**) الساعة الثانية ظهرًا، ذهبت استعد للاحتفال بعطلة نهاية الأسبوع مع صديقتي الجديدة التي تعرفت عليها منذ يومين هنا في

المستشفى بعدما قدمت خدمة لأمها المريضة، ساعدتها في الحجز والكشف سريعًا.

تقابلنا في (Exhibition Rd) بجوار (science Museum) بحرارة صديقين لم يلتقيا منذ عشرات السنين، قالت:

_كما رأيتك في المستشفى بالرداء الأبيض لم تختلف كثيرًا.

ظلت تحدق بي، تتأملني وتصفني كالفاتح العربي.. قيصر الشرق، فقاطعتها:

_نعم.. نعم أبي وأمي لهم جذور شرقية عربية، اكتسبت منهم بعض الملامح والروح.

تجولنا في لندن الساحرة كمتقشفين لأنها كانت ترفض أي وسيلة مواصلات، مشينا سيرًا على الأقدام، عند الشعور بالتعب كنا نستريح على الأرصفة في الطرقات، كانت محقة في منعي استخدام أي وسيلة للمواصلات لأني استمتعت بكل خطوة خطوناها معًا، كانت مختلفة عن صديقاتي السابقات.. بادلتني القبلات.. الأحضان، شعرت أني أعرفها منذ بضع أعوام، استدعيتُ أحد المصورين المتجولين، التقط لنا خمس صور، عندما أتى المساء دخلنا (Grosvenor Casino) أحد النوادي الليلية القريبة من منزل أمي في (Edgware Rd) الملقب بشارع العرب، ظلت ترقص إلى أن تاهت عن أنظاري ربما نشوة فرحي جعلتني أشرب حتى أصبحت لا أميزها

عن غيرها، جلستُ بعيدًا منهكًا إلى أن جاءت لي ودعتني للذهاب معها لنكمل سهرتنا في منزلها، اعتذرت لها معللًا التزامي بالذهاب لأمي يومًا كل شهر ولابد أن أذهب الآن لها، ضحكت من كلامي وحاولت الاستهزاء بي فرجوتها أن تغفر لي هذه المرة وبعد غد سأكون معها ولا نفترق ثانيةً، وصفتني بـالفتى المدلل المطيع لأمه، قبلتني بحرارة وودعتني، لكنها عادت لتعطيني صورتين من الخمسة التي في حوزتها...

آآآآآه إذًا هي وجدت الصور، هذا ما جعلها تخرج دون إزعاجي.

****

الصدمة سيطرت عليها للحظات لكن إيمانها بالله جعلها هادئة، كانت تظن حياتها سوف تبدأ بالزواج لكنها انتهت، كيف لم تكتشف مرضها من قبل؟ هل لو اكتشفته قبل الزواج كانت ستقدم عليه أو نشأت وافق أن يتزوج من مريضة تصارع الموت؟ هنا سيطر عليها هاجس أن كل الرجال باختلاف ألوانهم وعرقهم يعلمون إن ثمرة الزواج الإنجاب، ينظرون للنساء كآلات للإنجاب، يستخدمونهن لهذا الغرض فقط؛ لا يمتلكن أحاسيس أو مشاعر، مهما كان درجة الحب ومتانته يضعف أمام رغبتهم في سماع أول صرخة من جنينهم وإحساسهم الذي لا يوصف عند سماع كلمة أبي، فقررت إخفاء الأمر على زوجها برغم علمها أنه سيأتي يوم وتظهر الحقيقة، لكنها أرادت أن يستمر الحب قليلًا.

ظل الحب لبضع سنين بنفس حرارة أول لقاء بينهما بل كان يزداد بعد كل لقاء، كأن نشأت ومريم يكتبان قصة حب جديدة يسطرها حبهما، يكتبها الزمن لنقرأها نحن، الحياة البسيطة المنزل المتواضع يحمل بداخله أجمل قصص العشاق، لكن بدأ عم نشأت يسأل نفسه همسًا:

_إحنا مبنخلفش ليه؟ أنا خايف ليكون السبب مني ويبقى أتسببت في حزن وتعاسة بنت الناس، مش كفاية وخداك على فقرك كمان مابتخلفش.

فبدأ الطريق من أوله كما فعل السابقون، كثيرٌ من الذين سلكوه نجحوا في الإنجاب بعد صبر، فذهب لذوي الخبرة (عم إسماعيل العطار)، شيخ أزهري صباحًا - عطار مساءً- الذي أقنعه بأن جميع المتزوجين حديثًا

زبائنه حتى ينجبوا ويصبحوا غير محتاجين إليه، ثم أظهر أسنانه البيضاء مبتسمًا وهمس في أذنه:

_كانوا مثلك يأتون متخفين خشيةً أن يكشف الناس أمرهم، ويعتقدون أنهم عاجزون وغير قادرين على الإنجاب.

عم نشأت جاهل _غير متعلم_ فاستغرب من لغة العطار ولم يقدر على التحدث مثله فخضع إليه متذللًا:

_آه والنبي يا مولانا خلي اللي بينا سر أنا مش حمل فضايح.

هز العطار رأسه بتفهم الأمر، ذهب إلى أرفف بضاعته وظل يمسك بأشياء ويعيدها مكانها ثم يمسك أشياء ويضعها أمام عم نشأت؛ استمر هكذا لمدة ربع ساعة تقريبًا، ثم أشار إلى عم نشأت بالاقتراب فنظر حوله وكأنه يتأكد من خلو المكان من الناس، اقترب فأشار إليه:

_هذا جنسنج أما هذا طلع النخل وهذه نواة القمح وأخيرًا بودرة لقاح الزهور.

كان عم نشأت مع كل مادة يسميها يهز رأسه كأنه على سابق معرفة بها فأكمل العطار كلامه:

_ستطحنهم جيدًا يا حضرة إلى أن يصبحوا مسحوقًا واحدًا وتضع معلقة كبيرة على ربع كيلو عسل أبيض أصلي من عندي هنا.

فاعتدل واضعًا يده على صدره:

_لا تنسَ دعواتك لنا.

_شوفهم بكام يا عم الشيخ وهدعيلك للصبح وليك الحلاوة لو جات البشارة.

هكذا انتهى اللقاء بينهما، ذهب للبيت مسرعًا، جبينه يتصبب عرقًا من سرعته في الطريق، عندما دخل البيت وجد مريم مشغولة بعض الشيء، بدون أن يلفت انتباهها مكث على تحضير الخلطة.

****

مشيت على أطراف أناملي إلى أن وصلت لباب غرفتي، فتحت الباب بحذر وعناية كأبي أثناء إجراء عملياته الجراحية للقلوب، رأيتها ساكنة متأملة تتفحص صوري كمخبر جنائي، مما زاد الأمر خطورة أنها أحضرت جميع صوري حولها أدركت صمتها هذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

قررت الخروج _متسائلًا_ إلى متى سأظل مختبئاً؟!.

مررت من أمامها غير مدرك وجودها بادرت هي بالكلام:

_مرحباً يا آدم.. يا ابني الوسيم.

نظرت لها كأني متفاجئ؛ كان لابد أن أرد لها رسالة الترحاب:

_مرحبًا يا أمي الجميلة.. الوسيمة أيضًا.

أمي لا تتحدث باللغة الإنجليزية إلا في الأمور الجادة؛ حتى لا أتظاهر بعدم فهمي لها، فهي السيدة (سرور العايدي)، حرم الدكتور (ساري بن العايدي)، دكتور في جراحة القلب أحبها بعد إجراء عملية نقل قلب ناجحة لها، تم الزواج سريعًا، كان حينئذ مساعدًا

للدكتور العالمي/ **Norman Edward Shumway**

في مستشفى/ (**Leland Stanford Junior University**) الأمريكية، عندما استدعوه في لندن سافرا معًا وحملوا الجنسية الإنجليزية.

كل ما أعرفه عن أمي هي سيدة مصرية تحمل الجنسية الإنجليزية، جميلة مع مرور الزمن احتفظت بجمالها، عودها الممتلئ قليلًا بفعل التزامها

بالجلوس في منزلها طويلًا جعلها كالبلورة السحرية، بشرتها البيضاء شعرها البني، عيناها الواسعتان البنيتان يعطياني إحساسًا إني أسيرها عندما أنظر لهما، فهي كما لقبتها أنا وأصدقائي ساحرة الشرق، دائمًا كانت تشعرني بالفخر عندما تحصل على جائزة الأم الأكثر جمالًا، نعم هي جائزة غير معترف بها وعددها مقتصر على أعداد المتواجدين من أصدقائي لكن كانت تغمرني السعادة عندما تسعد هي، مشكلتي معها دائمًا في النصف الأول من حياتها (شرقيتها) في مجتمع غربي ومحاولاتها تعليمي اللغة العربية تحديدًا العامية المصرية، عندما أغضب اسألها:

_لمَ العامية؟! أليس تعليم القراءة والكتابة للغة العربية تكفي؟.

تبتسم وتنظر بعيدًا؛ أنا (أحب هذه النظرة):

_الشعب المصري يحب المزاح إذا حدثتهم باللغة العربية ستصبح مصدرًا للسخرية، أنا أعرفهم أكثر منك.

اسمعها بدون إبداء رأيي وعندما غضبت وقلت لها:

_أنا لا أريد أن أتعلم لغتهم، لا أريد الذهاب إليهم.

_هناك أهلك نصفك الثاني سيأتي يومٌ وتصبح منهم، هناك ستولد من جديد.

_أنتِ تريدينني أن أترك العلم والرقي وأذهب للتخلف والجهل؟

إذا أرتِ البحث عن عائلتك اذهبي وحدك أنا لن أذهب معكِ.

كانت هذه آخر محادثة معها بعدها أخذت سكنًا بمفردي للعيش فيه كجميع الشباب هنا عندما يتجاوزون سن الثامنة عشر يتركون بيت أبويهم ويتم استقلالهم لكن اتفقت معها عن أخر يوم في الشهر، تحديدًا في يوم عطلة نهاية الأسبوع سوف أقضيه معها.

ذهبت إلى دورة المياه، خرجت، أحضرت كوبًا ساخنًا من الحليب الطازج، جلست بجوارها وهي ما زالت تنظر للصور، خشيت أن أثير غضبها جلست صامتًا كتمثال الكاتب في المتاحف والمعابد المصرية، فجأة سمعتها:

_يا لك من ممثل عظيم.

_من! لا تقصديني يا أمي؟!

ابتسمت ووضعت بين يدي صوري:

_انظر لهذا الشخص.. نفس الابتسامة.. نفس القبُلات.. نفس الأحضان لفتيات مختلفة؛ أي قبلة أو حضن كان صادقًا حين أعطاه لفتاته؟

_من الممكن أن تسأليهن أيهن كانت صادقة معي.

قامت من مكانها، أحضرت لها كوبًا من القهوة الفرنسية، جلست بجواري ونظرت لي بتمعن كأنها صياد يتفحص فريسته قبل إصابتها بسهامه المسمومة، أخذت رشفة من كوبها، قالت:

_تتبادلون الاتهامات لبعضكم لكن.."أشارت بفمها إشارة تدل على سخريتها"، أكملت:

_لذلك كنت أريد أن ترى عالمًا آخر، هناك ستتعرف على أبطال حقيقيين ليسوا وهميين، أريدك بطلًا مثلهم، رجال تحدوا ظروفهم، رفضوا المال وشهوات الحياة في مقابل أن يحيوا حياة كريمة أن يروا السعادة في عيون الآخرين.

أشرت بإصبعي نحو الشرق:

_هل هناك رجال هكذا؟

_كان من الممكن ألا نرى بعضنا أو كانت أمك امرأة بغي، نهايتها ملقاة على إحدى الأرصفة تصارع الموت، لولا إرادة الله في إرسالهم لي حتى أراك وأحكي لك عنهم.

عجبت من كلامها، شعرت بأحدٍ يسكب عليَّ دلو ماء بارد وأنا عار في منتصف الشتاء؛ لساني لا يستطيع النطق بشيء اتسعت عيني من الصدمة، أرادت هي أن توضح لي، تجيب عن علامات الاستفهام التي لم أستطع النطق به فقالت:

_لا أعرف من أين أبدأ هل أبدأ من موت جدي أم من معرفتي بعبد الرحمن أو مقابلتي بوسمة كلاهما كانتا بدايتي لحياة أخرى، لكن سيظل مقابلتي بوالدك وفراقنا هي بدايتي ونهايتي الحقيقة والدك كان بطلًا حقيقيًا لابد أن تفخر به.

_أبي!!!

صرحت لي أن والدي الحقيقي هو عصمت عزمي، أما (ساري) دكتور شهم بعدما أجريت عملية نقل القلب بنجاح كانت تحتاج لرعاية خاصة وهي وحدها مغتربة فتزوجها ليتابع حالتها جيدًا عن قرب، خاصةً بعد مرور ثلاثة شهور من إجراء العملية ومعرفتها بالحمل من والدي، غضبت جدًا مما أسمع كيف أفخر به وأنا لم أحمل اسمه وترك أمي في محنتها ليساعدها رجل آخر ويرعاني، ابتسمت بمنتهى الهدوء وظلت تصف لي معنى كلمة التضحية وهي سارحة، أحيانًا مغمضة العينين مع حركة بسيطة لكفيها؛ شعرت أنها استحضرت روح أبي المجهول وحضر، فأغلقت عينيها حتى لا يراه غيرها.

حاولت أن أعرف الكثير عن أبي أو أحد من الذين ذكرت لي أسماءهم، لكن لم تبح، ربما لأن روح أبي حضرت أم لأنها فعلًا لا تعرف الكثير، كان آخر كلامها معي أن أبي ليس لديه صور حتى لا أسجن معه في غرفة الذكريات ولا أستطع الخروج، عند آخر لقاء لها مع صديق أبي المدعو عبد الرحمن عندما طلبت منه صورة لذكرى أبي قال لها:

_قلبي لديكِ وإن طال عمري سنتلاقى أما الصور سيأتي عليها يوم وتكتشفِ أنها كاذبة لأننا اليوم اختلفنا عن الأمس والغد لا أعرف من نكون.

ووضع بين يديها مفتاحًا لصندوق خشبي، معه عنوانه، مكانه، وأكمل كلامه:

_هذا إرثك من زوجك وإرث أبنائك من بعدك إن ضل بكم الطريق عودوا إليه.

****

عم نشأت ما يميزه في هذا الزمن طيبته وحنيته حتى إن كانت هذه الأشياء سمة هذا الوقت لكنه لم يخفها قط على عكس باقي الرجال الذين يخفون مشاعرهم حفظًا للهيبة والوقار، أعتقد هذا ما جذب انتباه مريم له في أول لقاء عندما جاءت لأخذ الطعام بعد انتهاء العُمال من تناوله فوجدت القطط مع عم نشأت كأولاده، يصب لهم الماء ليشربوا بعد أن يطعمهم بنفسه، بعد انتهاء عمله كانت تراقبه؛ فوجدته يضع علبة من الصفيح بها ماء أعلى الشباك؛ ربما يأتي طير ظمآن فيشرب، فدعت له قبل الطير الذي سيأتي يومًا فيشرب ويدعو له.

مريم لا تهتم بالهيئة أو المظهر لكن بالأفعال والقلب الرحيم، هذا الذي يجعلها متأملة وهي تنظر ليلًا للنجوم تفكر في عم نشأت، ترفع يدها تمسك النجوم لتعدل أماكنهم، تلمس القمر، ترسم عليه اسم البنَّاء.

مر شهر والخلطة لم تثمر بأي نتيجة إلى أن يئس عم نشأت، ذهب مرة أخرى للعطار الذي ظل يسمعه بتمعن وهو عاقدًا شفتيه -ممسكًا بلحيته- من أعلى لأسفل عدة مرات، حين انتهى من الكلام بدأ العطار قائلًا:

_زوجتك معقودة يا حضرة، لابد من فك هذه العقدة، لازم (تشق) حتى تستطيع الإنجاب.

هز عم نشأت رأسه بعدم الفهم فأكمل العطار حديثه:

_كل اللي عليك هو الذهاب للقبور لرؤية عظام الموتى، كذلك رؤية الذبائح والدم يتناثر منها حتى يمر على زوجتك لحظة صرع وأنت معها، لا تنسَ

الذهاب للجوهرجي لترى الذهب البندقي وتعبر (تشق) النهر، كل ذلك في يوم واحد، بهذا يتم فك العقدة.

من أجل صعوبة الأمر على عم نشأت في الإفصاح لزوجته عن نواياه أتى بها تدريجيًا، في يوم اشتاق لأبيه فأخذ زوجته معه، دخل المقبرة، شاهد العظام هناك، في ذات اليوم مر على السلخانة القريبة من القبور فرأى الشاة وهي تذبح، مشى على دمائهما هو وزوجته.

كان يومًا عصيبًا على مريم أرهق جسدها وأعصابها جدًا إلى أن أغمي عليها، لم تستطع أن تتماسك، حاول عم نشأت يساندها لكن فشل؛ فحملها على كتفيه إلى أن وصل لدكتور الوحدة وهي ما زالت في حالة الإغماء؛ مع رؤية الدكتور لها تذكرها، فسأل زوجها ما الأمر؛ فحكى له عم نشأت؛ فصرخ الدكتور بعصبية حادة في وجهه:

_أزاي يا جدع تعمل كده مع وحده عندها القلب، خلفة أيه اللي أنت بدور عليها في الأماكن دي؟ أنت يهمك أيه مراتك وصحتها ولا ابن في علم الغيب؟.

شعر عم نشأت بصاعقة هزت كيانه عندما سمع هذا الكلام، نظر لها وهي مغشياً عليها، محدثًا نفسه:

_قلب!.. هي عندها القلب؟.. يعني كانت هضحي بحياتها وتموت نفسها عشان تسعدني؟!.

علم من الدكتور أنها تحطمت عندما تأكدت من صعوبة الحمل على صحتها والألم سببه هو؛ لأنها تعلم أهميته له، أرادت إخفاء الأمر عليه حتى لا يتركها تعاني من آلم قلبها وفراقه معًا.

_كانت عارفه غرضي من روحة القبور وهو خطر على قلبها!، وراحت معايا يمكن تموت وأنا جنبيها.

_الحب.. الحب وحده يا نشأت اللي مابيخفش من الموت، من الممكن يواجه بصدر مفتوح في سبيل سعادة حبيبه.

اختلط الأمر وشرد الذهن تارة من حوار الدكتور له وتارة بحديثه لنفسه، عندما أفاق من شروده طلب أي محاوله لإفاقتها والعودة معه للمنزل.

استدعى عم نشأت (العربجي) المار من أمام المستوصف ليحمل زوجته غير القادرة على أن تحملها قدماها، ساعدها في الصعود على العربة ذات الألواح الخشبية المهلهلة، مع سوء الطريق كان يشعر أنهم سيسقطون من أعلاه، العربة يجرها حمار بائس يائس من كثرة ضرب صاحبه له، مع كل حفرة أو حجر يعرقل العربة ينظر عم نشأت لزوجته ليطمئن عليها هل هي بخير؟.

"فاقد الشيء لا يعطيه" هكذا قال السابقون ولعم نشأت كيف يعرف الحنان والشفقة وهو لم يقابلهم في حياته أبدًا، من صغره لم يرَ أباه إلا قليلًا، ما يتذكره منه هو وداعه أينما حل موعد السفر وانتظاره بالأيام أمام بيتهم من شروق الشمس إلى مغربها ورفضه دخول البيت إلا وفي يده أبوه،

ابن السادسة لم تعطف عليه الأيام فحرمته من والده بسفره المتكرر، حرمته من حنان أمه التي قست عليه كلما ضاقت بها الأحوال، فاضطر ليساعد أمه وأخته الصغرى فعمل في السوق ينظف أمام المحلات ويرش لهم الماء وإحضار كافة متطلباتهم في مقابل القليل من المال ليعود وهو يعلم أن أمه في انتظاره لتأخذ كل ما لديه، إلى أن اشتد ساعده فأخذه أبوه ليعمل معه ويساعده في عمل البناء ويعلمه صنعة أجداده، فأصبح ملازمًا لأبيه في سفره وعودته، فكيف لأحد مثله يعرف للحنان والعطف معنى؟.

عندما تسمع عنه أو تراه بدون أن تعرفه ترى صورة رجل متكامل مسؤول من صغره عن عائلته ولم ينقصه شيء، وإن نظرت داخله تجده خاوٍ، ضائعة منه ذاته؛ فتدرك حينها أنك ترى صورة مخادعة ظلت تحكي لك عن وهم وسراب.

إلى أن قابل في أحد الأيام مريم في البيت الذي يعمل فيه فظل يراقبها دون أن تدري فرق قلبه جعلته يعرف للحب طريقًا فبدأ شيئاً فشيئاً يتعرف على الحنان والعطف، فتقرب لكل ما هو حوله من طيور وحيوانات فيضع لهذا ماء ولهذا طعام يحاول اللعب مع القطط وتقليد الطيور، كان مدركًا لولا مريم ما كان يعرف لهذه الحياة طعمًا فبدأت صورته تكتمل بعدما اكتمل الشيء المفقود فيه.

في آخر يوم العمل أثناء قدوم مريم لإحضار الطعام قال لها:

_لو محبتنيش كفايا عليا أني أحبك، أنتي في قلبي حتى لو أنا مش في قلبك.

نظرت له باندهاش وكاد قلبها يقف من متعة المفاجأة فقدمها فقدت صوابها، كانت ذاهبة للمطبخ لتكمل إحضار الطعام فدخلت غرفتها ولم تخرج منها طوال اليوم.

نادى عليه (العربجي) مستعلمًا عن طريق البيت فقطع شريط ذكرياته، انتبه إليه ووصف له الطريق ووضع ذراعه حول كتف زوجته، ربت عليها، ظل صامتًا إلى أن وصلوا، دخلت مريم غرفة نومها وهو ظل في الباحة المقابلة لها، تذكر حاله فابتسم قليلًا وبكى كثيرًا.

****

اتصلت بصديقتي، اعتذرت لها عن مقابلتها إلى أجلٍ غير مسمى فأنا ذاهب لرحلة لا أعلم نهايتها، وكذلك ذهبت إلى عملي وطلبت إجازة لمدة شهر بدون مرتب لظرف طارئ يخص والدتي وكنت مسبقًا صرحت عن مرضها في ملف السيرة الذاتية عندما طلبوا مني في أول يوم عمل لي، وافق مديري على الفور لخطورة الموقف، أنا الآن في أول طريقي نحو الحقيقة والكشف عن الماضي وإزاحة الغبار من عليه.

طريق صعب وطويل، لكن لابد أن أمشيه، لقد قلتِ لي احذر من مشقته، عندما جاءت لحظة الوداع حاولتِ منعي فرفضت، كيف لي ألا أمشيه بعد ما سمعت منكِ ما قلتيه؟، سامحيني فالحقيقة غايتي، أريد أن أعرف عنهم كل شيء ولِمَ فعلوا كل هذا؟!.

ها أنا على أول أرض وصيتين أن أخطو عليها، عبد الرحمن خاطر كان هنا يمشي، هنا التقط أول أنفاسه، كما وصفتِ لي وجدت كل شيء مكانه، هل حقًا كان في يوم من الأيام يسكن هنا؟، هل هذه الأرض شهدت طفولته وبراءته؟، اشتقت لأعرف ما يخفيه في صندوقه الخشبي، لديكِ كل الحق بأن أبدأ من حيث بدأ، من شياخة عرب يسار "حي الخليفة"، أشاهد الجدران المتهالكة والأرض المتعثرة، أشعر أنهم يريدون أن يتحدثوا معي عنه، يريدون أن يحضنوني شوقاً وحرقة لطول غيابي عنهم، أدرك جيدًا أنهم يعرفون من أنا ولماذا أتيت هنا، جعلوني أعجل في تركهم وذهابي للشق الآخر لرحلتي إلى فيلا "وادي القمر" لصاحبها شهاب علوي من طول رحلتي

وكثرة سهري وتعثري في البحث عن الحارة ثم الفيلا، من سفر إلى سفر كدت أهلك وأصبحت أشبه الشحاذين، حرس الفيلا اعتقدوا أني كذلك وحاولوا طردي وأهانوني، مع إصراري لمقابلة صاحب الفيلا حاولوا أن يعطوني صدقة، لكني التمستُ لهم الأعذار، بعد معاناة أدخلوني على صاحب الفيلا الدكتور رأفت شهاب _رجل في الستين وسيم.. نحيف بعض الشيء شعره أبيض مع القليل من الشعر الأسود ومحتفظ بشاربه المختلط باللونين_ استقبلني ورحب بي واعتذر عندما سمع بما فعله الحراس، ضحك من هيئتي فور علمه أني دكتور في جراحة الفم والأسنان وتم تعارفنا.

هو أستاذ ورئيس قسم في جامعة القاهرة في الاقتصاد والعلوم السياسية، تحدثنا عن أحوال البلد ما بين السياسية والاجتماعية، رفض أن يعرف لماذا أنا هنا إلا بعد تناولنا العشاء؛ أثناء تناولنا الشاي في التراس المطلة على الخضرة والأشجار، أحسست أن المكان حضاري ومريح لكن كانت الحارة أدفأ وأحن من هذه الفيلا، فاجأني الدكتور بسؤاله كأن دور الضيافة انتهى وحان موعد رحيلي؛ فأخبرته أن لي شيئًا هنا يخصني وأريده، أولًا أحمل له التحية الطيبة، ثانيًا رسالة أتمنى أن أرجع بالرد لمن أرسلني إليه، بكل هدوء ورصانة طلب معرفة الرسالة فأخبرته أن هذه الفيلا التي يمتلكها كانت لشخص آخر يدعى عبد الرحمن سيد خاطر، عندما أراد الرحيل خارج البلاد باع الفيلا لوالدك السيد شهاب علوي، لكن ترك

عندكم صندوقًا خشبيًا قديمًا هيكله مصنوع من الخشب الزان، مطلياً باللون الأسود اللامع، مزخرف بمشغولات من النحاس ووضعتموه أمامه في مخزن بجوار غرفة الخدم، قال والدك له عندما تستقر أرسل لي أي شخص من طرفك يصف الصندوق ومكانه ومعه المفتاح سوف أعطي له الصندوق على الفور، أخرجت المفتاح من جيبي ووضعته أمامه، ابتسم الدكتور رأفت وأخبرني أنه على علم بكل هذه القصة، كان موجودًا حينها، يتذكر كل شيء يومها، أمر الخدم أن يحضروا الصندوق فكان مغطي بالأتربة، بعد تنظيفه أحضروه ووضع الدكتور المفتاح في قفل الصندوق وفتح ثم أغلق القفل مرة أخرى، أعطى لي المفتاح أما الصندوق أمر أن يحملوه لغرفتي إلى أن أنوي الرحيل مستغلًا ذهاب زوجته الدكتورة أمنية وابنته الوحيدة نرجس لزيارة عائلتها في الإسكندرية، ابتسمت له وشكرته على حسن ضيافته وأخلاقه معي، أعطاني الإذن لذهابي لغرفتي لأستريح من مشقة السفر وأتأكد من محتويات الصندوق أنها كاملة وبخير.

جاءت اللحظة التي أنتظرها (أنا والصندوق) كم تمنيت وتأملت هذه اللحظة ووضعت قصص وسيناريوهات لهذا اللقاء وجاءت أبسط مما تخيلت، لم أصارع على اقتنائه أو أضطر إلى سرقته وأحاول الهروب من الحراس وهم يطاردونني ويطلقون عليَّ النيران أو عند فتح الدكتور للصندوق يصدر صوت مزعج يقتل كل ما هو حوله أو يطلق دخانًا ذا لون غريب لا نرى بعده شيئًا، أعتقد وأعتقد وخاب ظني، الصندوق لم يكن

مسحورًا وعبد الرحمن خاطر كان يعلم جيدًا من يأتمنه على أسراره، فوضع كل ما يخبئه عنكِ في هذا الصندوق عند عائلة نزيهة، عريقة، مثل عائلة السيد شهاب علوي.

وضعت المفتاح مجددًا في قفل الصندوق، فتح وجدت بضع صور ومجلدًا أو حافظة أوراق مكتوب بخط اليد وجواب بدون عنوان، كنت مترددًا بأيهم أبدأ؟، لكن قررت أن أبدأ بالترتيب حسب الوضع بالصندوق، أمسكت بالصور وتأملتها، كلها تم التقاطها بحرفية، كانت تجمع بين الكلاسيكية والحداثة، لكن تشعر بمصورهم واحد أو إحساسهم موحد في التقاط الصور (باختصار قبل أن يحملوا الكاميرا كانوا مفتتنين)، وفي نفس الوقت عفوية ليس بها رتوش أو مشاعر مصطنعة، عندما رأيتها شعرت أنني رجعتُ بالزمن إلى الوراء حيث كنت في الغيب، لم أتخيل قط أنني أحد الموجودين في الصور لكنني شعرت أني أحد الشاهدين عليها، هل حقًا كنت أرى قبل ميلادي العالم الذي سوف أتواجد فيه؟!، أم نحن عندما نموت نحيا ونعود في شكلٍ آخر ودورٍ جديدٍ وأماكن لم يسبق لنا التواجد فيها؟.

لفتت انتباهي الصورة الأولى بالأبيض والأسود كم كانت جميلة وتصلح لوحة فنية تنافس في أكبر وأضخم المهرجانات للصور الفوتوغرافية، بها رجل مسن ذو لحية بيضاء يرتدي جلبابًا داكنًا، بأسفله والمنتصف به رقع مختلف ألوانها وأحجامها واضح أنها شقيت معه وعاشت عمرًا أطول من عمرها لكنه لا ينقص من جمال الجلباب شيئًا، يبدو عليه أنه كفيف من

خلال حوار عينيه النافرتين عن الكاميرا على العكس الولد الصغير الذي يقف إلى جواره منتبهًا جيدًا لعدسة الكاميرا ويبدو عليه الخوف ومنتظرًا شيئًا يخرج منها، ممسك بيد الرجل المسن بشدة، يرتدي طاقية من الصوف بها بعض القطع، بالنسبة للجلباب إنها لطيفة بعض الشيء أما الصورة الثانية...

لما جذبني النظر للصورة وتحليل ما بها وأنا لم أقدم إلى هنا إلا لقراءة ما لا أعرفه فالذي أعرفه لا يذكر بالنسبة للذي أجهله، واحترت من جديد أبدأ بالجواب أم المجلد؟ المجلد كبير أما الجواب فيبدو أنه ورقة واحدة من الممكن أن أجد ما يطفئ ناري وشوقي لما يخفيه عبد الرحمن، لكنني أرجح المجلد يبدو أنها مذكراته والجـواب لشخصٍ داخل المذكرة من أجل معرفة صاحب الجواب لا بد أن أقرأ كل مذكراته، بدأت في الصفحة الأولى.

****

لم يجد أحدًا يبوح له عما آلم قلبه ومزق حياته سوى أخته الوحيدة رغم أنها تعتبره أبًا لها إلا هذه المرة كان جالسًا أمامها كطفل طائع لأمه أو تلميذ أمام معلمته، بعد أن انتهى من شكواه وبدون إدراك لمشاعره قالت:

_يعني مش هتقدر تجبلك الواد؟.

_في خطر على حياتها، ممكن تموت، لو عاشت ممكن الابن يتولد بتشوهات أو ياخد المرض منها.

_أجبلك ست ستها، لو مش موافقة طلقها.

بدون تفكير رفع يده في وجهها، فابتعدت قبل أن يلطمها، هربت من مكانها للحظة وعادت، قائلة:

_يعني مش عايز ولاد كرامة لمشاعرها! خلاص يا ابن البنّا، هتموت وكأنك كنت غير موجود؟! طاب بلاش أنت فكر في أبوك أزاي هان عليك تدفن اسمه وينساه اللي حبوه؟ بلاش واد هاتلك بنت تترحم عليه وعليك، بلاش عزوة كفايا عليك واحد يمشي في جنازتك يبكي عليه وعليك.

حزن عم نشأت من كلمات أخته، لكن كيف يخلد ذكرى أبيه المتوفى على جثمان حي يرزق، كيف يضحي بزوجته أو يكسر قلبها بزواجه من غيرها، وتصبح عرضة للشامتين لعدم قدرتها على شيء في متناول غيرها، أصعب شيء نظرة ضُرتها لها مع كل صرخة طفل جديد يسبب لها ألمًا كبيرًا في جسدها، أقوى من ألم قلبها.

بعد أن خرج عم نشأت من منزل أخته حائرًا لا يعلم أين يذهب فظل سائرًا على قدميه حتى شعر بالتعب فأراد أن يستريح؛ فنظر حوله فرأى بار الخواجة جورج، جذبته أضواؤها عندما تضيء فجأة وتنطفئ فجأة وكأنها تناديه، ذهب إليها دون تردد، هذا أنسب مكان يستريح فيه وينسى مشاكله لو لبضع دقائق.

شعر بتمزق أحشائه بعد تناول أول كأسين فسأل عما يشرب فأجابه الخواجة أنه مزج من صنع يده من بقـايـا الزجاجات التي لا تصلح لعمل كأس، فيسـكبهـم في زجاجة جديـدة ويضـع عليـها اسـم "جورج بلس"، شعر عم نشأت باشمئزاز وطلب مشروبًا آخر خلاف الأول فوجده باهظ الثمن فتراجع عن قراره وطلب نفس المشروب مرة أخرى.

شعر بدوار في رأسه وفقد اتزانه، عندما اصطدم بالشاب الواقف بجواره أحس بالخجل – اعتدل-نظر له بحدة كأن الشاب هو المخطئ، سأله منذ متى هو هنا؟، كيف لم يشعر به؟، ابتسم ومد له يده ليسلم، لم يمد له الشاب يده فتبلدت الابتسامة في وجهه:

_أنت ما بتسلمش على السكارى؟ عندك حق بس إيه اللي رماك علينا؟ أحنا كلنا هنا مذنبين وبندور على مبرر، بس أنت لسه صغير عشان توقع في الذنوب؛ قوم يا بني من هنا المكان ده مش ليا ولا ليك، أنا مش هاجي هنا تاني ومش عايزك أنت كمان تيجي.

ربت على كتف الشاب وأكمل حديثه:

_أوعى تزعل من كلامي أنا زي أبوك مع إني معنديش أولاد.

كان الشاب ينظر له بتأثر وحزن مما يسمع بدون أن ينطق، هز عم نشأت رأسه، طلب الحساب وخرج من البار.

دخل بيته مخمورًا مضطرب الخطوات فترنح قليلًا، كانت مريم في انتظاره قلقةً من تأخره عن العشاء، هو لم يفعلها من قبل، أدركت سبب تأخره عندما رأته بهذه الهيئة، ساندته؛ لكن محاولاتها باءت بالفشل، سقط أرضًا نظر لها من الأسفل وعيناه تغمرهما الدموع؛ فاحتضن ساقها ووضع عليها قبلة:

_أنا عمري ما هسامح نفسي لو زعلتك أو كنت السبب في أذيتك، أختي مش حاسة بيا ومتعرفش عن الحب حاجة، أنا بحبك يا مريم؛ والله العظيم بحبك يا مريم.

_عايزاك تتجوز غيري عشان الأولاد، اسمع كلامها يا نشأت أنت محتاج ابن يسند ضهرك.

_فداهية الواد بس تبقي معايا يا نعيش سوا يا ربنا يخدني أنا قبلك.

ظل يبكي حتى تبلل جلبابها، فحاولت إبعاد دموعها عنه حتى لا تتساقط عليه لكنها لم تستطع.

أصبح عم نشأت أحد الزبائن الدائمين لبار الخواجة جورج حتى خصص له ركنًا يعرف باسمه ممنوع جلوس أي شخص مكانه، يأتي في معاده كل ليلة يجلس مكانه ويطلب مشروبه المفضل "جورج بلس"، يثرثر مع صديقه

الشاب الرافض كل شيء من حوله صاحب النظرة اليائسة الذي لا يجلس مع أحد سواه، نظر أمامه – ابتسم- وضع أصابعه على حافة الكأس المستدير، ظل يتحسسه ببطء، قال:

_مش عارف ارتحت ليك أزاي وفتحت ليك قلبي... _ثم نظر له_ وأكمل:

_ده أنت بقيت تعرف عني اللي أنا معرفهوش عن نفسي، يمكن لأنك مستمع كويس ولا لأنك أمين على الأسرار؟! فوضع يده عليه وأكمل:

_أنا بحس ساعات كتير إني بكلم نفسي.

ضحك بصوت عالٍ وأصدر صخبًا في المكان، نظر له الخواجة جورج وتهامس مع أحد الزبائن المنزعجين من صخبه في المكان:

_هو كده لما بيسكر، بس وحياتك عندي ده راجل طيب أوي.

****

الفصل الثاني

القاهرة (**1930**: **1968**م):

أنا لا أخشى الشيطان بل على يقين أنه يخشاني، نهايته أو نهايتنا معًا بعد قليل، ذاهب إليه لأقتله أو نقتل سويًا ليس هناك احتمال آخر.

لماذا أمسكت الورقة والقلم؟ ترى ماذا سأكتب؟ هل ما أكتبه سينفع أحد؟.

لا أعلم.. لكن أعلم جيدًا أن هناك شخصًا على حافة الهاوية أريد أن أنقذه ربما لم نتقابل فأوراقي هذه ستنقذه، لا أعلم من أين أبدأ قصتي، سأكتبها وابدأ أنت من حيث تريد.

أنا عبد الرحمن؛ ابن الشيخ سيد خاطر، رجل بسيط ولِدَ كفيفًا، الطبيعي في ذاك الوقت من يولد كفيفًا مكانه المعتاد الكُتاب ليحفظ القرآن الكريم ويعلمه، هذا ما فعله جدي مع أبي، منذ نعومة أظافره وهم ينادونه بالشيخ سيد إلى أن تزوج بنت خالته الفتاة المنطوية التي لا تعرف في حياتها سوى أربعة جدران في منزل والدها، هي نفس الجدران في منزل ابن خالتها، إن خرجت كانت تخرج لرعاية الطيور أو لطهي الطعام لأبيها، ثم تعود مرة أخرى للأربعة جدران والسقف (المصنوع من جريد النخل ومغطي بالطين)، كانت هادئة في حياتها ومماتها، لا أتذكر أنها ضربتني يومًا أو غضبت مني إلى أن توفيت وأنا لدي سبع سنوات، أعتقد أنها رحلت

عنـدما تأكـدت أن والدي وجد من يستنـد عليـه ويرعاه، يومها كنت نائمًا، استيقظت على بكاء بعض النساء داخل بيتنا وصراخ خارجه، أخذتني جارتنا من يدي وأعطتني لأبي فسألته:

_أمي فين يابا؟، مين الحريم اللي في بيتنا دول؟، أيه اللي دخلهم بيتنا؟

ربت عليَّ قائلًا:

_أمك الله يرحمها، أمك دي ست ما فيش زيها أبدًا يا ابني، ربنا يصبرنا على فرقها ويعوضني بيك خير أدعيلها ديمًا يا ابني، اقرأ لها الفاتحة.

منذ ذلك اليوم عرفت قيمة الأم وألم الفراق، عندما فقدت الحنان وقمت بدورها من تنظيف البيت وغسل ملابسي وملابس أبي وتحضير الطعام، محاولات أبي الفاشلة لمساعدتي لم ترحني يومًا واحدًا.

أوشكت على حفظ القرآن الكريم في كُتاب أبي، لا أدري هل حفظت حبًا في القرآن حقًا أم خوفي من (الفلكة)، إذ كيف لابن شيخ الكُتاب لا يحفظ القرآن؟.

كان التعليم في أزهى عصوره بعدما كان يقتصر على الكتاتيب والأزهر الشريف؛ تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن في الكُتاب، أما الأزهر الشريف في الأحكام -علوم الشريعة- قليلًا من مادة الحساب لمعرفة أحكام المواريث، حتى جاء محمد علي باشا (**1805** : **1848**م) مؤسس مصر الحديثة؛ أحدث طفرة في التعليم والصناعة والزراعة فزادت الرقعة

الزراعية والمصانع الحربية، أما المدارس فقد وجدت في عهده حوالي ست وستون مدرسة، تم توزيعها حسب التعداد السكاني فأصبح تقريبًا ست وعشرون في الوجه القبلي وأربعون في الوجه البحري، فكانت السبب في تعليم آلاف التلاميذ في مصر وسفر المتميزين بعثات إلى الخارج، خوف أبي من بُعدي عنه كان السبب في عـدم ذهابي للتعليم المدرسي، هذا هو السبب الوحيد الذي أعرفه فالفقر ليس عائقًا لتعليمي لكنها ظروف أبي الخاصة كانت السبب.

كان أبي يحفظنا القرآن ويوكل أحد تلاميذه من طلاب الأزهر بتعليمنا القراءة والكتابة، كانت الأجرة قسمة بينهما نهاية كل شهر، استمرت حياتي بعد وفاة أمي لثلاث سنوات لم تتغير من المسجد للكُتاب ثم البيت، حتى أتى حارتنا

الأستاذ (علي بركات) المحامي الشاب في عمر الثلاثينيات مثال للمثقف الأنيق سواء كان يرتدي البذلة الكاملة أو الجلباب في صلاة الجمعة أو أثناء جلوسه مع مثقفي حارتنا وشيوخها، اهتمامه الشديد في ارتداء ساعة اليد الفضية ودبلة الزواج من السيدة (نجاة العمري) بنت العمدة السابق لقرية (كفر البدماص) التابعة لمدينة جزيرة الورد (سابقًا) المنصورة (حاليًا) التي توفي والدها وانتقلت العمودية إلى عمها الأصغر، فاختنقت وبدأت حالتها تتدهور على فراق والدها الذي كان يجمعها قصة حبّ كبيرة معها خصوصًا أنه رفض الزواج بعد وفاة أمها، فنصح المقربون الأستاذ علي بركات

أنه لابد أن يرحل بعيدًا عن القرية لعلها تنسى، لم يجد مكانًا أنسب من حارتنا في هدوئها وأهلها الطيبين، هذا ما تداولته نسوة الحارة بعد قدوم السيدة نجاة لحارتنا.

من أول نظرة للأستاذ علي بركات رأيته كالأفعى ناعم الملمس، هيئته وألوانه ملفتة للنظر لكن في جوفه سم يقتل كل من يقترب له، هنالك شيء يخفيه لا يريد لأحد معرفته.

اليوم الذي جاء فيه إلى حارتنا لا زلت أتذكره كأنه اليوم، دخول (عربات الكارو) تجرها بغال شديدة محملة بأثاث فخم لم ترَ حارتنا له مثيلًا مما جعل أهلها يقفون منتبهين على الجانبين وسط ذهول وترقب لوجهة هذه العربات، جاءت خلفهم سيارة، لأول مرة تدخل مثل هذه الأشياء هنا وهذا على غير العادة فكان أهل الأثاث يأتون مع الأثاث على العربات، همس أحد الواقفين بجواري أنها "سيارة المانية ماركة طوربيدو"، نزل منها الأستاذ علي مسرعًا، فتح الباب لزوجته فخرجت إلينا كالأميرة معها طفلة لا تتجاوز الثامنة من عمرها، لم أتصور أن هناك طفلة تأسر القلوب تحطم كل الأسوار التي بنيناها في عقولنا عن الجمال، بنورها أطفأت المصابيح كأنها بدر سطع لحارتنا مجسدًا في فتاة، كان من السهل أن أعرف اسمها حينها لكنني فضلت أن أعرفه منها هي.

عادت السيارة للقرية فهي من أملاك العمدة الجديد، أنا وكل أهل الحارة ساعدنا الأستاذ علي في إنزال الأثاث من (العربات الكارو) إلى منزلهم الجديد الكائن في منتصف الحارة على بُعد أمتار من بيتنا والمسجد.

تمت التهاني وتركناهم وذهبت أنا بجسدي فقط ولم أدرِ أين عقلي وقلبي رحلوا، وفي اليوم التالي وجدت الأستاذ علي وابنته يمران أمام بيتنا، رأيتها في زيها المدرسي حيث يصحبها أبوها للمدرسة قبل ذهابه للعمل، روتين يومي يفعله المتحضرون هنا مع أبنائهم الذكور لكن الإناث كانت هذه أول مرة برغم أن افتتحت نبوية موسي منذ زمن في القاهرة فرعًا لمدرسة بنات الأشراف (المخصصة للفتيات) التي أسستها في الإسكندرية سنة (**1920**م) وكانت مصروفاتها أكثر من مصروفات المدارس الأميرية بالرغم من ذلك كان الإقبال عليها أكثر.

في إحدى الأيام بعد الظهر أرسلني أبي لشراء طعام لغدائنا، أثناء ذهابي وجدتها في طريقي عائدة وحدها من مدرستها لكن هناك من يضايقونها، يحاولون اعتراضها فذهبت إليها ودارت معركة بيني وبين الأولاد المشاغبين انتهت بهروبهم من أمامي لأجدها تصفق لي ببراءة لم أرها في أحد من قبل ومشت أمامي فهمَمْتُ مسرعًا لأسبقها بسؤال روتيني:

_هما ضايقوكي؟ أوعى يكونوا أخدوا منِك حاجة؟.

_لا محدش أخد مني حاجة، شكرًا أنك بعدتهم عني.

ابتسمت وكدت أن أطير من فرحتي فقد حدثتني وشكرتني، فجأة وقفت وأكملت:

_أنا شفتك امبارح.. أنت أكتر واحد كنت بتساعد بابا.. أنا مبسوطة إن بابا جبنا في مكان ناسه كويسين وجدعان.

_دي حاجه بسيطة وعادي في حارتنا، بس اللي مش عادي أن بنات حلوة تسكن فيه.

رغم صغر سنها فهمت ما أقصده، احمر وجهها فأسرعت في خطواتها، ناديتها:

_أنا لسه معرفتش اسمك.

وقفت وفي لحظة لا تُنسى التقت الأعين في احتضان دافئ يحتويني بحنان يغمرني حبًا وعشقًا، بصوت هامس حذر:

_اسمي... وسمة.

****

اعتادت مريم على حياتها الجديدة، ظلت في حيرة وحزن؛ كيف رضيت بهذا الوضع وزوجها أصبح أشهر رجل سكير في الحارة، يدخل الحارة يترنح بين جدرانها على أن يدخل بيته، أحيانًا محمولًا على أعناق أهل الحارة.. يقولون لها كان ملقى في عرض الشارع؛ مرة أخرى ملقى على الأرصفة، وهي لا تنسى أنه كان زينة رجال الحارة وما ضيعه إلا أنانيتها وخوفها على حياتها من كثرة تحذيرات الأطباء لها من خطر الحمل عليها، تركته يضيع تائهًا في البارات والشوارع حرصًا منها ليتركها، تمسكها به سبب له فقدانه لنفسه، وما جعلها تفعل ذلك غير حبها الجنوني له لأنه الوحيد الذي أكمل صورة الرجل الذي تتمناه، الآن الصورة تتمزق وتذبل وهي السبب.

يا ليته ما أصغى لكلام الناس الذين جعلوه شخصًا محطمًا.. حائرًا.. ما بين العادات والتقاليد وحبه لزوجته، ووصل الأمر لمعايرته تارة بخوفه من زوجته وأهلها من زواجه بغيرها وتارة بضعفه الجنسي واختلاق مرض لزوجته حفاظًا لسمعته، لامت نفسها واتهمتها بأنها شريكة معهم في هذا الجرم وضياع أفضل رجل ممكن تقابله في حياتها.

_ربنا كبير زي ما كرمني بأجمل بنات الحارة ومدهاش لغيري، حرمني من الخلفة وإدها لغيري ودي لحكمة محدش يعرفها غيره، أنا راضي مهما يقولوا الناس عليا، طول ما أنت مصدقني أنا مش عايز حاجة من حد.

هكذا أختتم عم نشأت كلامه مع صديقه الشاب قبل أن يطلب الحساب من الخواجة جورج ويخرج من البار.

السعادة مشاعر تستحق البحث عنها رغم صعوبة إيجادِها، هناك من أنهك نفسه في العمل بحثًا عنها، هناك من بحث عن تحدٍ صعبٍ ليشعر بها، لكن سيظل أعظم شعور بالسعادة عندما يمتزج بالحب.. لا تدري أيهما أفضل وأكثر طغيانًا على الآخر، أرقى سمات السعادة التي تتشارك بها مع من تحب وكل منهما يريد أن يهبها للآخر فتزداد لديه أكثر وأكثر؛ ذهن مريم لم يتوقف للحظة في البحث عن السعادة وقلبها حزين يائس، بعدما فقدت سعادتها بضياع حبيبها، رأت في الموت أقصر طريق لسعادة زوجها بعد زواجه من غيرها، من يعلم؟ من الممكن يعيش طفلها وتسعد هي أيضًا حتى إن ماتت، فابتسمت ابتسامة المهزوم وقالت لنفسها:

_في الموت حياة.

بعد مرور ثلاثة شهور كانت كعادتها منتظرة زوجها يأتي من الحانة فاقد الوعي فدخل عليها، قبل يدها ورأسها مع بعض الكلمات المتشابكة التي لا تفهم منها شيئًا، قبل أن يدخل غرفة نومه ليستلقي على سريره بملابس العمل أوقفته بسؤالها:

_أنت مش هتقولي مبروك؟.

أمسك قبضة الباب بيده كأنه يتساند عليه، شعوره بالكلمة ونبرة صوتها أحس بالصدمة وبغصة في قلبه، بدون أن ينظر لها:

_خير.. مبروك على إيه؟.

_خلاص من النهاردة مش هتروح البار تاني.. إحنا محتاجين كل مليم لابننا اللي جاي.

_أنتي؟

_أنا حامل.

أفاق عم نشأت من سكره كأنه لم يتذوق الخمر من قبل، أدار جسمه ببطء، نظر لها:

_إزاي وأنتي عارفة أنك متقدريش؟ عرفتي من فين؟!.

_زي كل يوم أمي بتبعتلي حد من أولاد إخواتي يشوفوني لو محتاجة حاجة، لما لقوني مغمى عليا شالوني على السرير وجات الداية اللي جنبينا قالتلي إني حامل، أنا اللي كنت فاكرة أن التعب ده من... ابتسمت ونظرت للأرض.. أكملت:

_قلبي.

احمرَ وجهُ عم نشأت غيظًا، أمسك ساعدها بقوة:

_أنتي لازم تنزلي اللي في بطنك ده.

_أنت عايز تموتني؟!.

نظر لها وهي توجه له السؤال لم يجد في عينيها سوى حب له كما لم يرَ الحب من قبل، شعر بظلمه لها عندما تركها وحيدة ولم يملأ عليها حياتها كما كان في الأمس، انشغل عنها بعمله ثم ذهابه للبار، أصبح ظهوره في حياتها مجرد ساعات أليمة ومملة، تذكر حين قالت له ذات يوم أسمى معاني

السعادة التي يعطيها فاقد السعادة لمن حوله وينشر الفرحة والبهجة بينهم، لم يفهمها حينئذٍ.. الآن فهمها؛ ابتسم لها مستغربًا حينها.. الآن ابتسم أيضًا حزينًا لغبائه وسذاجته فأصعب الأشياء التي تفهمها متأخرًا.. بعد فوات الأوان.

****

أجمل ما في الجمال أن تحسن استغلاله إنه يهب لك الهيبة والسلطان، ووسمة تدرك جمالها، متى رحلت صاحبتها الهيبة والسلطان، اسمها وجمالها يدير حروبًا وغزواتٍ يهزم وينتصر، يُحيِ ويقتل قلوب العشاق لكن معي رفعت لها رايتي البيضاء.

اسمحي لقلبي يعلن حبي لكِ.. اسمحي لي أن أعلن أني أعشقك إلى الأبدِ.

نظرت حولي لم أجدها، بحثت عنها إلى أن رأيتها أمام بيتها يفتح لها الباب، فحدثت نفسي لما لم تنتظرني أقول لها اسمي؟ سيطرت عليَّ، شرد ذهني، جعلتني بجوارها كخيال (مآتة)، وقفت جانبي إلى أن أصابها الملل، كم تمنيت أن تعرف اسمي وأسمعها منها، كنت أتمنى أن يخرج اسمي بين شفتيك حتى أصبح ملكًا.

رجعت إلى البيت فارغ اليدين من الطعام الذي ينتظره أبي لأن النقود المعدنية سقطت من بين يدي أثناء الاشتباك والجري وراء أولاد الحارة، بعدما انتهيت من سرد ما حدث لي وجدت أبي شخصًا آخر لم أعرفه أبدًا، غضب بشده، أنا لم أره غاضبًا هكذا من قبل، لأول مرة يضربني ضربًا مبرحًا وهو يقول:

_يا بن الكلب.. إحنا مالنا، نتخانق ليه؟ أفرض ضربوك وفتحوا دماغك مين هيجري عليك.. مين هيرعاك؟ أوعه أسمعك خلصت أتنين بيتخانقوا، أحنا نمشي جنب الحيط وبس فاهم ولا لأ؟.

من شدة الألم أصرخ مع كل ضربة من خزرانته قائلًا:

_فاهم.. فاهم.. والله العظيم فاهم.

لا أنطق غيرها إلا أن أنقذني أذان العصر فتوقف عن الضرب وظل يقول:

_أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم.

بدأ يردد الأذان وذهبت لأحضر له ماء الوضوء، شعرت بالانكسار والذل مرتين في المرة الأولى عندما كنت أظن أنه سيكافئني وضربني، والمرة الثانية عندما ذهبنا بعد الصلاة لأهل الأولاد نعتذر لهم وطلب مني أن أقبل رأس كل واحد منهم، قبل أن أفعل وجدت أبا وسمة قادمًا نحوي مبتسمًا:

_ابنك يا عم الشيخ يعتذر ليهم؟، مين يعتذر لبنتي؟.

ارتبك الأولاد وأهلهم شعروا بالخجل فأكمل:

_لا يا جماعة إحنا كلنا هنا أهل وقعدين في بيت واحد، لا ابنك يعتذر ولا الولاد، من هنا ورايح أنتم أخوات وبنتي أختكم برضوا، اللي يغلط التاني يقوله عيب.. كده غلط.. ولا أيه؟.

في لحظه أنهى مشكلة، جعل كلًا منا راضيًا وسعيدًا، الأفعى وعلي بركات كلاهما يحمل سمًا هذا يبثه في العروق وهذا في آذان السامعين، كلاهما يحملان نفس الرهبة والألم، كلاهما يقتل بلا رحمة، لكن ما يحيرني لماذا صورة الأفعى تلازمني عندما أراه؟.

بعد انتهاء المجلس ذهب معنا ليوصل أبي إلى بيتنا، تحدث عن شجاعتي وشهامتي، عن خوفه على ابنته من بُعد الطريق لمدرستها في الذهاب والإياب،

وهو منشغل جدًا في مكتبه وقضاياه في المحاكم ويتمنى أن أتولى منه هذه المهمة وأقوم بتوصيلها من البيت إلى المدرسة وأخذها من المدرسة للبيت بعد الظهيرة مقابل أجر ماديّ، بمهارة ولباقة محامٍ محترف أمام أبي القاضي أقنعه أنه ليس أجر بل إنه مصروفي من أب لابنه مثلما يعطي ابنته سيعطيني، لم يجد القاضي إلى أن يحكم لصالح الدفاع وسط تهليل وتكبير الحضور لكن بداخلي.

نظر لي الثعبان بعينيه اللامعتين وبنصف ابتسامة أشار لي:

_من غير مشاكل يا عبد الرحمن، أي حاجة تحصل متتكلمش خالص تعالالي أنا هتصرف.

_إن شاء الله ما فيش، أنا هخلي باللي عليها وبس، مليش دعوة بحد.

_شاطر يا عبده.

سلم علينا وذهب، أنا وأبي دخلنا بيتنا، كان أبي يحدثني لم أدرِ ماذا يقول، فأنا الآن في الصباح معها نتحدث ونضحك وسط الخضرة والزهور، لكن يد أبي جعلتني أفيق من شرودي بعدما صفعتني على مؤخرة رأسي:

_فيه أيه يابا؟.

_هو أنا بكلم نفسي يا بن الكلب؟.

من عادات أبي بعد صلاة الفجر ينتظر في المسجد يتلو القرآن ويسبح ويستغفر إلى شروق الشمس ثم يغلق المسجد ويذهب للبيت، عندما

خرجنا وجدت السيدة نجاة أم وسمة أمام بيتها تنتظرنا، ندهت لي، سمعها أبي:

_كلم يا ابني أم وسمة وسيبني أنا هكمل الطريق مع نفسي.

رفضت في البداية لكنه أصر على تركي له، اتجهت نحو منزل وسمة وجاءت إليّ مبتسمة تحمل حقيبتها تحت إبطها، عندما خطوت الخطوة الثانية وجدت أبي ينادي:

_يا عبد الرحمن أنت يا ولد؟ أوعه تكون ماشي مع الست وسمة وسيبها تشيل الشنطة لوحدها؟ حاسب يا بني لأحسن الأستاذ علي يقول أنّ ابني معندهوش دم، متكسفناش مع الناس الله يخليك.

جعلني في حيرة ما بين الشهامة وهيئتي أمام أهل الحارة وأنا حامل حقيبة سيدتي لكن اخترت الشهامة، أن لا أترك فتاه تحمل شيئًا وأنا معها، أخذت الحقيبة منها وأصبحت من تلك اللحظة أحملها ذهابًا وإيابًا، في الظاهر خادم بمقابل مادي أو بمعنى آخر مساعد بأجر إنما في الباطن حبيب يلتقي بحبيبته صباحًا ومساءً، استمرت الأيام هكذا ليس بيننا سوى نظرات وابتسامات بدون كلام أو توضيح بما في قلوبنا، إلى أن جاء هذا اليوم الذي لا ينسى، كانت هي بداية أول ذكرياتي عندما خرجت من المسجد ولم أرَ وسمة في انتظاري فطرقت باب منزلهم لتخرج أمها وتعتذر لي، أخبرتني أن ابنتها لن تذهب اليوم، فشغلني أمرها، سألت عن السبب، ابتسمت

وطمأنتني أنها بخير فهذا يوم ميلادها، أراد أبوها ألا تذهب اليوم لمدرستها، دعتني أنا وأبي لحضور الحفل، وأصرت على حضورنا ليلًا.

قبل الظهيرة أرسل لنا الأستاذ علي بأن نرتدي أفضل ثياب لدينا أثناء ذهابنا لصلاة الظهر، بعد الصلاة سيحضر لنا مفاجأة سارة، بالفعل ارتديت أفضل ما لدي لكن أبي كان لا يملك؛ أفضل جلباب لديه يحمل عشرات الرقع.

أثناء خروجنا من المسجد كالعادة بعد كل المصلين أوقفنا الأستاذ علي، لكن كان معه رجل آخر قال له لا ينفع لابد أن يغيروا أماكنهم لمكان به إضاءة أكثر، وقفنا تحت أشعة الشمس كما أراد الرجل، بدون أن أفهم شيئًا وقفنا بضع دقائق أمام صندوق خشبي أعلى حمالة تفرد وتطوى، كانت على كتف الرجل، أما الصندوق به من الأمام دائرة زجاجية وخلفه قطعة من القماش يستتر خلفها الرجل، نادى علينا بالثبات وبعد ثوانٍ خرج من خلف الصندوق، شكر أبي الرجل والأستاذ علي، تبادلا الدعابات وذهبنا فسألت أبي عن هذا الرجل من يكون؟ ما هذا الشيء الذي يحمله؟ لكنه كان يسبح كما يفعل بعد كل صلاه، لم يرد.

بعد صلاة العشاء ذهبت وحدي إلى منزل الأستاذ علي، لأحضر الحفل، لم يكن عند أبي مانع طالما سأرجع له بكل شيء أتذوقه في الحفل، دخلت البيت بعدما فتحت لي وسمة فهنأتها وسعدت بحضوري؟ قالت أنّه أسعد عيد ميلاد لها، جذبتني من يدي مسرعة لأرى المصور ويلتقط لنا صورة،

انتبهت للاسم هل هو رجل تلك الظهيرة؟ نعم هو يجمع الناس بجوار بعضهم ويفرقهم أيضًا، هذه المرة ممسك في يده عصا في أعلاها مصباح يضيء وينطفئ فجأة، التقط لي صورة جماعية مع كل الحضور، كان عندما يعطوني أي شيء لألتهمه كنت أقسمه بيني وبين أبي الذي ينتظرني متشوقًا للقائي، لاحظت أم وسمه ما أفعله، سألتني لمَ أفعل هذا؟، عندما علمت ضحكت وهمست للأستاذ علي، فضحك أيضًا؛ ذهبت وأحضرت معها طبقًا مغطى وقالت:

_أنت هنا تاكل وبس، لما تيجي تمشي تاخد الطبق ده معاك للشيخ سيد.

أعجبتني طيبتها ورقتها، أدركت أن وسمة هي جزء أو بقايا سقطت من أمها والأستاذ علي ليس له علاقة بها، علاقته الوحيدة بوسمة أنه السبب في الحزن الذي يبدو في عيني أمها.

انشغلت بالأشياء التي أتذوقها ولم أعرف لها اسمًا - برؤيتي لوسمه وهي تلعب – تمرح- مع الحضور، كنت في قمة سعادتي، طُرق الباب، فتحت أم وسمة، وجدتُ أحد أولاد الحارة مرسل من أبي أنه يريدني أن أعود للمنزل لأنام حتى لا يفوتني صلاة الفجر أو يثقل عليّ، تقدمت لأذهب معه، بعد خروجي قبل إغلاق الباب تذكرت طبق الحلوى الخاص بأبي، فرجعت مسرعًا لأحضره، كانت وسمة واقفة وحيدة أمام المصور وأمامها كعكة مزينة بالشموع، أثناء محاولاتها لإطفائها والمصور يعد الأرقام عد تنازلي

3،2،1 كنت بجوارها، توقفت فزعًا لإدراكي خطئي، نظرت لوسمة ثم للمصور، مشهد مر لبضع ثوانٍ دون أي تخطيط أو علم مسبق، لا أعلم ما ستسببه لي في المستقبل، أخذت الطبق، ذهبت لأبي وانتهى أجمل يوم في حياتي.

مرت الأيام سريعًا، لا أشعر بها، لم انتبه لها مطلقًا إلى أن جاء الأستاذ علي دارنا يحمل في يده ورقة، كنت اعتقدها مجرد ورقة عادية، أعطاها لأبي قائلًا:

_اتفضل يا شيخ سيد صورتك أنت وابنك لسه جيبهم من عند المصوراتي.

_ليه التعب ده؟ هو أنا هعمل بيها أيه بس؟ وأنت عارف.

_يا عم الشيخ دي حاجة هتبقالك طول ما أنت محافظ عليها، بعد عمر طويل يفتكرك بيها ابنك، لما يحكي عنك لأحفادك يشوفوك، كأنك عايش معاهم.

_أنا مش عايز غير العمل الصالح وعلى العموم ربنا يخليك يا الأستاذ علي وألف شكر، اتفضل اشرب حاجة.

تركتهما يتحدثان وأمسكت الصورة أقبلها واحتضنها من فرحتي بها، لم أعرف أن تلك اللحظة التي مرت في ثوانٍ سوف تخلد باقي عمري وأطول، كم كانت جميلة، شعرت حينها أني أختلف عن باقي أهل الحارة فمن منهم يمتلك صورة مثلي؟!.

غادر الأستاذ/ علي، نده لي أبي:

_أنت فين يا عبده.

_أنا جنبك هنا يابا.

_أيه عجبتك الصورة؟.

_حلوة أوي والنبي يابا.

_أنا عامل فيها أيه؟.

_كأنك بقيت أتنين يابا وحدة في الورقة دي والتاني واقف قدامي.

ضحك أبي وأطال في ضحكته لكني أفسدتها عندما قلت له:

_هو ينفع أمي تيجي تتصور معانا وتمشي تاني؟ أصلها وحشتني أوي ونفسي ترجع لنا يابا.

****

لم ينم هذه الليلة لعدم مقدرته للنهوض إلى غرفته، ظل جالسًا على المائدة ينظر للأطباق المغطاة دون أن يكشف عم بها من طعام إلى أن تسلل أول ضوء للشمس، حاول إدراك ماذا يفعل في كل صباح وهو ذاهب للعمل، لم تسعفه ذاكرته خرج إلى العمل شاردًا لم يسمع منادي الصباح والسلام له، لم يرَ الطريق، هل هو في الطريق الصحيح أم ضل وعليه الرجوع من البداية.

وصل.. كيف لا يعلم ربما كانت قدمه ترى أفضل منه، نظر حوله لم يجد أحدًا من العُمال مساعديه؛ سخر من نفسه عندما أدرك أن الوقت مبكرًا، نصب (السقالة) حول الحائط ليكمله، أحضر عدته (الحجاري _القروانه _المسطرين _الكريك والجردل " دلو الماء") بالكريك فتح في منتصف كومه التراب فتحةً دائرية كبيرة، بدلو الماء أصاب كومه التراب، انتظر التراب والماء يتجانس ويختمر، ظل يقلب إلى أن أصبح طينًا متماسكًا وأمسك الحجاري وظل يكسر الحجارة الكبيرة ليجعلها مناسبة لرصها على الحائط، عندما انتهى من التكسير أحضر القروانة ملأها طينًا بالكريك، حملها هي والحجارة - المسطرين- خيط الميزان- على (السقالة)- صعد فوقهم ليبدأ العمل ولكن...

إلى أن صعد (السقالة) لم يدرك ماذا حدث أخل توازنه ليسقط أرضًا والطين يسبقه، من فوقه كانت الحجارة، فأصابته ببعض الجروح، حاول أن ينهض بنفسه ويقف على قدمه، لم يستطع ولم يجد أحدًا يسانده فأطلق

لنفسه العنان ليصرخ بأعلى صوته بكل ما أوتي من قوة، بكى بحرقة على قدمه أم على حبيبته لا يدري، لكنه ظل يتأوه ويمسح دمعه.

_أنا الإنسان الوحيد اللي بيتمنه ميكنش نفسه، يارتني مكنت أنا، يارتني ماحبيتـك ولا عشقتك يا مريم، ياريتك حبيتي راجل يقدر يحميكي ويخاف عليكي وله شخصيه، حتى لو ملهوش قلب.. ما هو القلب اللي هيموتك وهيموتني يا مريم، آآآه يا مريم غلطتنا الوحيدة أننا لينا قلب.

ظل يردد في مخيلته كثيرًا بهذه الكلمات كأنه يكتب قصته من جديد للعارفين وغيرهم أثناء حلاق الصحة يعد له الجبيرة ويربط قدمه اليمنى بالشاش، بعدما جاء صبي البناء ورآه ملقًا على الأرض وكان يصرخ فأحضر له شباب المنطقة، حملوه إلى بيته، ومن خلفهم حلاق الصحة ليسعفه، حاولوا التحدث معه ليفهموا ما حدث رغم المشهد يعبر عن نفسه، لكن أردوا إخراجه من حالته، كان ينظر لهم ولا يتحدث ربما لأنه لا يجد ما يقوله أو لأنه كان يحدث نفسه!، عيناه متعلقتان بعيون زوجته فاعتقدوا أنه أصيب بالبكم إلا مريم كانت تسمعه جيدًا بقلبها ودموعها تتساقط واحدة تلو الأخرى ليس فقط على كسر قدمه لكن لنبرة الحزن التي تنساب من كلماته وحظه السيئ.

ظل صامتًا لا يتحدث مع أحد، زوجته رغم مخاوفها عليه ومحاولاتها للتخفيف عنه إلا أن مخاوفها تزداد وتصبح أشباحًا حين تفكر في مولودها

هل ستراه أم لا؟ هل سيكون إنسانًا طبيعيًا أم به تشوهات؟ هل ستورثه مرضها أم سيصبح معافًا من كل سوء؟.

عندما ترى عيونه حزينة تسأله عن أي شيء تقضيه له أن كان يشعر بالجوع أو يريد أن يذهب لمكانٍ ما؟، لكنه لا يرد عليها مكتفيًا بهز رأسه فقط بالرفض أو بالقبول.

لم يكن لعم نشأت سند في محنته فماله ذهب لحانة الخواجة جورج، ليس له أحد سوى أخته الصغيرة المتزوجة من صديقه الذي تعلم المهنة على يديه، أسرة أخته سعيدة مستقرة تنعم ببنتين رغم ضيق ذات اليد وصعوبة المعيشة، لذ لم تستطع أخته مساعدته، مريم هي التي وقفت بجانبه ورفضت جمع التبرعات له من أهالي الحارة والحارة المجاورة، صرخت في وجه الشيخ:

_أحنا مش محتاجين حاجة من حد، مبنشحتش يا عم الشيخ.

ثم اعتذرت، تفهم شيخ الحارة موقفها ودعا لها ولزوجها، ثم ذهبت لأبيها الذي رفض في بادئ الأمر لعلمه بما يفعل زوجها في البارات وعدم رعاية بيته لكن عندما ذكرته بحملها خاف عليها وأقنع أولاده بمساندة أختهم الوحيدة حتى يستطيع زوجها الوقوف على قدمه مرة أخرى، هنالك تتركه وتعود للعيش معهم وزوجها يبحث عن حياةٍ أخرى بعيدة عنهم؛ كان هذا شرطه الوحيد، بعد تردد وافقت مريم، كان كل همها ألا تترك حبيبها في محنته دون علاج أو طعام أو أحد بجانبه وهو عاجز عن الحركة، عندما

يعود بصحته ويقف على قدمه سيثبت للجميع أنه قادر على رعاية بيته وزوجته ومولودها القادم.

مرت الأيام ثقيلة.. مملة إلى أن جاء حلاق الصحة ليخلع (الجبيرة)، مع أول ضغطه لقدم عم نشأت على الأرض وجد أنه لا يستطيع الوقوف والثبات عليها كما كانت فنظر للحلاق فبادره:

_أكيد ده من تأثير الوقعة، اشرب لبن كتير وامشي عليها وحدة وحدة أسبوع ولا أسبوعين هتبقى أحسن من الأول بإذن الله.

وأخذ أجرته وغادر منزلهم مسرعًا لأنه أدرك أن عظام قدمه لم تعد مستقيمة والتوائها سيلازمه طيلة حياته.

****

صباح اليوم التالي أخذت وسمة وحملت حقيبتها، في منتصف الطريق حدثتني عن الرجل الذي كان يصورنا، أدركت أنها أشجع مني في طلبها لمعرفة الأشياء، عندما صمتت الأم والأب عن إجابة من هو المصور ذهبت للمصور مباشرةً سألته، قال لها أن سنة (**1839**م) في فرنسا اخترع "جاك ماندية داغير" آلة التصوير الشمسية هذه وأول صورة في مصر والوطن العربي كانت في عهد محمد علي باشا عندما أراد أن يصور حريمه ولا ينظر إليهن المصورون الأجانب، إنما هو تعلمها على أيد الأستاذ رياض أفندي شحاتة، المصري الأكبر في ريادة التصوير الفوتوغرافي الذي قام بتأليف أول كتاب مرجعي عن التصوير الشمسي الحديث، قد نشرته دار المعارف عام (**1910**م).

انتبهت لابتسامتها التي لا تفارقها فسألتها عن سر هذه الابتسامة فقالت:

_تعرف إنك مشترك في أحلى حاجة حصلتلي في عيد ميلادي؟.

_إزاي؟.

_فاكر لما رجعت تاخد الطبق لباباك؟.

أومأت رأسي بالموافقة فأكملت:

_المصور جابك معايا في الصورة، جاب نظرتك مع ابتسامتي ووقفتك جنبي، الكيكة قدامي، الأنوار – الزينة- من ورايا، كل ده خلى الصورة أجمل صورة في عيد ميلادي، خلت صورتك أحلى صورة في حياتي.

_هي الصورة حلوة أوي كده؟ طب أنا ممكن أشوفها؟.

_طبعًا لازم تشوفها، دي صورتك.

انتهى طريقنا أمام الباب الكبير للمدرسة، رجعت لأبي، سألته:

_هو أنا ليه يابا مليش عيد ميلاد؟.

_يابني دي حاجة بيعملها الناس الفاضية، إحنا مش فاضيين للكلام ده.

أزعجني كلامه جدًا، هذه المرة الأولى التي أعارض فيها أبي بعدما أنهى كلامه وكأني طفل من السهل إقناعه، فباغتُه باعتراضي:

_كلامك ده زي كلامك لما قولتلك أحنا ليه فقراء؟ قولتلي أحنا لينا الآخرة والفقراء أحباب الله، وده مش حقيقي يابا.. مَن جَدَّ وجد دي كلمة أخدتها وسمة في المدرسة، أنت قولتها في الكُتاب لكل مجتهد نصيب، في القرآن "إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا"، يبقى الفرق اللي بينا وبين الأغنياء بسيط، العمل والكفاح يابا.

شعرت بتعبيرات أبي اختلطت ما بين سعادة لأني بدأت أبحث عن كل كلمة ومعلومة اسمعها، الفضل يعود لحبيبتي وسمة التي دائمًا تحاورني وتريد أن تعلمني دون أن أشعر أنها تعلم أكثر مني، وحزن لأني أول مرة اعترضه، بعد فترة صمت قال:

_كلامك كويس، معقول، لكن اللي أنت متعرفهوش أن الفقراء أشد حاجة إلى ربهم، ديما كلمة يا رب على لسانهم، المال بياخذ عقل وراحة البال، قليل اللي بيقرب لربه بعد ما راح منه العقل وراحة البال، يمكن يابني أحنا لو أغنيه المال يلهينا، عشان كده ربنا عايزنا فكرينه وقريبين منه.

رد أبي جعلني أفقدُ الكلام وألتزمُ الصمت حتى الصباح، قابلت وسمة، سألتها عن صورتي معها في عيد ميلادها قالت لي أن أمها احتفظت بها خوفًا من أن تنكسر أو تضيع منها، لكن قريبًا ستدعوني إلى منزلها لأرى تلك الصورة.

وصلتها، عدت إلى البيت وجدت أبي جالسًا مستيقظًا كعادته، ألقيت عليه السلام ورده لي، ناداني وأنا ذاهب لفراشي، جلست بجواره فوضع يده على كتفي وقال:

_أبوك أعمي صحيح لكن بيشوف ببصيرته، بيحس بيك كمان، أبعد عن وسمة مش عايزك تتعلق بيها دي مش ليك ولا أنت تنفع ليها.

هنا حاولت تغيير الموضوع فتململت وتخبطت حروف كلماتي، أوقفني أبي وأكمل حديثه:

_أوعه تفتكرني أعمى مابشوفش؟، أنا شايفك كويس يا عبده، بسمع دقات قلبك وهو بيتنطط من الفرح كل ما تقابلها ولا تشوفها، اسمع كلامي يابني، إن كانت هي كمان معجبة بيك بكره هتكبر وهتنسى وأنت اللي هتتعب في الآخر، وصلها لغاية ما تقدر تمشي لوحدها وابعد عنها.

تركته وذهبت إلى فراشي ودفنت نفسي تحت غطائها، يا ربي من أين جاء أبي بخبر حبي لها؟، كيف علم بما أخفيته وسررته حتى عن نفسي؟ خشيت من تحقق كلام أبي وتصبح وسمة ليست لي، يأتي يوم.. نفترق.. وتنساني؛ من تحت الغطاء جسمي ارتعش، لم أجد غير الدموع تخفف عني الخوف والغضب.

في اليوم التالي حاولت فعل ما قاله أبي لكن لم أستطع قابلتها بنفس اللهفة والحب حملت حقيبتها عنها، دار حوارها معي وكلي آذان مصغية، كان كلامها بالنسبة لي الجرائد التي لم أستطع شراءها يومًا، مر عام، دائمًا كلامها متنوع ما بين أخبار عالمية ومحلية، كانت نافذتي التي أطل بها على العالم، دائما كنت أسأل نفسي من أين لكِ كل هذه المعلومات؟ متى جمعتينها؟.

ذات يوم كانت تقص لي ما كان يدور في مصر قبل محمد علي باشا كان السؤال يدور في ذهني، قاطعت شرودي قائلة:

_أنت عارف ليه يا عبده أنا كل يوم بقعد أجمع في معلومات وأخبار وأقولها لك؟.

تمعنت في السؤال، نظرت لها، أومأت برأسي بعدم المعرفة فأكملت حديثها:

_بحاول أعوضك عن اللي ناقصك، الفلوس مبتعملش راجل من غير الفلوس أنت هتفضل راجل، لكن الجهل هو اللي ممكن يضيعك، العلم

غير العالم من حولينا، أنت لازم تتعلم، تشغل عقلك يا عبده، أصل أنا حاسة في يوم هشوفك أحسن واحد في الدنيا.

بعيدًا عن آخر جملة قالتها كنت أسمع نبرة صوت والدها كأنه يحدثني، هذا ليس حديثك يا وسمة، كلامك عن الحياة الأفضل والانطلاقة والتمرد على كُتاب أبي به سم لا يبثه إلا ثعبان.

تصنعت ابتسامة، حاولت مراوغتها لعلها تصرح لي هل حقًا والدها هو من يرسلها بهذه الأفكار أم أنها حقا تفكر من أجلي؟ لم أستدل على شيء ربما أنا كنت أريد ألا أستدل وأشعر بحبها لي وحقًا هي تفكر بي، وصلتها إلى المدرسة وذهبت للدار وجدت أبي نائمًا كنت لا أريد إيقاظه، لكن الفضول دفعني فناديته:

_أبويا أنت صاحي؟ عم الشيخ سيد أنت صاحي؟.

رد عليَّ وهو شبه حالم:

_عايز أيه؟ مالك؟.

_إزاي يابا بنبقى عارفين الصح وبنعمل الغلط؟، بنقرب للخطر ونبعدش عنه؟.

حدثني كأنه في إحدى خطب يوم الجمعة وبشكل مفصل عن طهارة القلوب، من صلح نيته أرشدته للخير، أبعدته عن الشر، عن جحر الأفاعي، ربي أعطانا القلوب لترشدنا وترك لنا حرية الاختيار.

في نهاية حديثه قبلت يده ورأسه وطلبت السماح حيث أثرت قلقه، ابتسم لي، جلس يتلو بعض الآيات القرآنية، ذهبت لأريكتي أفعل مثله ولم أستطع، تفكيري في كلامه منعني عن فعل أي شيء، جعلني جالسًا كالأصنام لا أرى لا أسمع لا أتكلم، لكني أفكر هل يا أبي الحذر يمنع القدر؟.

أسمع وأحكم.. سأرضى بما تقول مهما كان حكمك لا أعتقد سيكون أقسى مما فعلته بي الأيام.

****

حانت لحظة الفراق، دخل إخوة مريم المنزل ليأخذوها فرفض عم نشأت، حاول منعهم فطرحوه أرضًا وقدمه لم تسعفه، تخلت عن مساندته كما تخلى شبابه وصحته عنه، فسقط أرضًا وبدا عليه الوهن، قلة الحيلة.. حاول إمساك أقدامهم فرفسوه في بطنه ووجهه قائلين:

_أول ما تبقى قادر تقف على رجلك وتدافع عن نفسك وتدفع اللي صرفناه عليك يبقى تعالى خدها زي ما أخدناها منك.

حاولت مريم حمايته منهم حتى لا يصيبوه بأذى أو إهانة، لكن لم تستطع، ظلت تبكي.. تصرخ.. فقام أحد أخوتها بكتم صوتها فتسارعت نبضات قلبها، ضاق تنفسها ونهجها بشكل غير المعتاد، شعرت باختناق، غشي عليها، فحملها أخوتها بعد سقوطها أرضًا، اكتفى الضعيف الواهن بلمس قدمها، من بين قطرات دمائه الساقطة من جبينه على عينيه ظل ينظر لها من بين سيقان إخوتها ويمد يده للحاق بها، لكن كل محاولاته فشلت.

أفاق بعد لحظات أو ساعات لم يدر لكنه أدرك أنه أغمي عليه من شدة ألم الضرب والمقاومة، انتبه لصوت أخته وزوجها يتحدثان مع الجيران:

_إحنا خرجنا على أصوات الصراخ والضرب لقينه مراته مغمى عليها، شيلينها أخواتها، بيقولوا أحنا عرفين بتحبي فيه أيه الأعرج الخمرجي ده.. فهمنا أن فيه مشكله عنده، بعتنالكم.

ضرب زوج أخته كف على كف:

_والله ما هسكت.. هجبلك حقك هي الدنيا سيبه؟! لو مجبتهوش الحكومة هجيبه بدراعي.

كانت أخته تبكي:

_سلامتك يا أخويا وأبويا.. سيبك منهم أقف على رجليك.. هجبلك ست ستها، دي وش فقر عليك.

بكت قليلًا ثم أكملت:

_قوم قوم يا أخويا.. سلامتك يا غالي يا ابن أمي وأبويا.

عم نشأت ظل ينظر، يبحث عن كلمات ينطق بها، لكنه افتقدها وهو يسقط من (السقالة)، فاستند بيده اليمنى على ساقه اليمنى، ظل يتعكز شيئًا فشيئًا إلى أن دخل غرفة نومه وأغلقها عليه.

عندما أتى المساء لم يدرِ بنفسه ووجدها تأخذه للبار رغم عدم مقدرته على الحركة، نظر له الخواجة جورج بذهول لبرهة عندما رآه يعرج، في وجهه بعض الجروح، ثم عاود النظر بعيدًا عنه، كأنه يتفقد عمله دون أن يبدي أي اهتمام حتى لا يتسبب له في ارتباك أو حرج.

جلس عم نشأت بعد غياب كعادته في نفس المكان حزينًا، كان الشاب ينتظره في مكانه حزينًا أيضًا، ابتسم عم نشأت ساخرًا:

_طبعًا عرفت باللي حصلي ما سيرتي بقيت على كل لسان، صحبك ضعيف.. جبان.. ضربوه.. أخدوا مراته منه؛ بس يا صحبي الحكاية مش مين كد مين

أو مين أقوى من مين.. الحكاية كلها مين يقدر يسعد مين ومين يفرح مين.. أنا مقدردش لأسعدها ولا أفرحها، أنا خايف أبقى السبب في موتها.

أحضر له الخواجة مشروبه دون أن يطلبه فشربه في جرعه واحدة، نظر بجواره:

_لا يا صاحبي، لا هشتكيهم ولا هقف قصادهم تاني، صحيح قادر أحبسهم لكن مش قادر أوجع قلب مريم على أخواتها، كفاية لغاية كده.

وضع رأسه على حافة (الكونطوار) محاطًا بذراعه حتى لا يرى أحد دموعه.

أن كان وعدها أجبرها على تركه فوعدها كان مقتصرًا على جسدها فقط، لكن قلبها ما زال معه أينما حل أو رحل فهي أول من رآه ساقطًا من (السقالة) غارقًا في دمائه وهمومه، هي من ترعاه في وحدته وذهابه للبار، إن لم تستطع أخذ مكان الشاب فهي من كان يسكن روحه أثناء تواجده معه كانت تسمعه.. تضحك لفرحه.. تبكي لحزنه، هي لم تتركه للحظة، تركت قلبها للمحبوب إنما وجد أو ذهب يحميه ويرعاه.

استدعت جارتها، أعطت لها مفتاح بيتها لتضع لعم نشأت الطعام، تنظف له المنزل، تغسل ملابسه مقابل أجر مُجْزٍ، وافقت الجارة، بدأت عملها فورًا.

ذهب عوض زوج أخت عم نشأت غاضبًا إلى الخواجة جورج، أمسك بقميصه، هدده إذا سمح لشقيق زوجته بالدخول لحانته سيضربه ويحرق

حانته النجسة؛ صرخ الخواجة بعلو صوته فاجتمع الناس حولهما، هدؤوا من غضب عوض وقالوا له: التفاهم أفضل من العنف، جلس عوض وجورج في ركن من أركان الحانة، بصوت خافت بدأ يتحدث الخواجة:

_وغلاوة ابني الوحيد ما كذبت عليك، نشأت ده مش زبون عندي ده صاحب مكان، هو بدأ عندي زي أي زبون عادي وبعد كده لقيته متعلق أوي بصورة ابني وحيدي اللي خطفته أمه مني وسافرت بلدها، مرضيتش تعيش معايا، لقيت حد حب ابني يمكن أكتر مني، بيحكي معاه بالساعات مرة يضحك ومرة يبكي.

نظر عوض حوله وجد صورة كبيرة بحجم شاب في العشرينيات ملتصقة على الحائط في آخر (الكونطوار) الفاصل ما بين الخواجة والزبائن، صورة لشاب وسيم حزينٍ بعض الشيء عندما تراه تشعر أنه ينظر لك، أكمل الخواجة حديثه، انتبه له عوض:

_بعد الحادثة أنا فهمت حالته، بطلت آخد منه فلوس بس هو بيصمم يدفع، مرة ألاقي ورق، مرة ملاليم، بقوله شكرًا يا بيه وأسيبه يمشي، وحياتك عندي يا ابني أنا مش مهم عندي الفلوس طالما بياجي لابني يونسه ويفضفض معاه.

تأسف عوض عما بدر منه وسامحه الخواجة وتفهم غضبه، قبل أن يخرج عوض نظر للصورة لدقائق بأسى وخرج.

الفصل الثالث

في يوم مثل كل الأيام أو بمعنى أصح كنت أعتقد كذلك، عندما كنت عائدًا مع وسمة بعد الظهيرة من المدرسة رأيت زحامًا أول حارتنا فاقتربت منها لأعرف السبب، كنت أنت السبب يا أبي، لماذا أتيت إلى هنا؟، لمَ لم تلتزم وتحتمي بالجدران؟، شيء غريب يحدث لا أفهم سببه، والذي عرفته أن هناك أحد السائقين تقريبًا كان مخمورًا من أسلوب قيادته للسيارة التي انتهت باصطدامك، أكمل طريقه كأنه لم يفعل شيئًا، هذا ما تداوله كل الشهود على مماتك، في حياتك لغز.. في مماتك أيضًا لغز..

دائمًا كنت أسأل نفسي من أين أتيت بكل هذا الرضا عن حياتك البسيطة رغم أنك كفيف لا تراها؟، كنت تتعامل مع صدماتها من وفاة والديك ثم زوجتك بصبر لم أعلم من أين مصدره، لِمَ أتيت إلى هنا؟، لماذا كانت نهايتك هكذا؟، الشيء العجيب عندما كشفت وجهك رأيت ابتسامتك وأنت ملقيًا على الأرض جريحًا مغطيًا بقماشة لا أعرف لونها من دمائك، هل حقًا ابتسامتك كانت لي أنا فقط أم كان غيري يراها؟، راضيًا في حياتك ومماتك فاحتضنتك لأننا لن نتقابل بعد اليوم، كنت أضمك لصدري لعلّ دماءك تطفئ ناري، لكنها زادتها، كلما أبعدوني ازددت خوفًا من الآتي، تمسكتُ بك لتحميني أنا الأعزل لتقف مكاني رغم أنك كنت تشاهدني دون أن تدافع عني، قالوا عنك متُ رغم أني أراك وأنت تراني.

أهالي الحارة أقاموا لك العزاء، احترتُ كثيرًا ما بين مد يدي لمصافحة الحضور ومد يدي لجمع المال والإحسان عليّ وجيوبي متهالكة ممزقة، كانت

أمُسية عزاء شيخ الحارة ليلة الإحسان على ابنه، انتهت الليلة وبدأت ليالي الوحدة والحرمان من أمي واكتملت بك، تذكرت شيئًا أسرعت إلى أغراضك الورقية، تجولت بينها إلى أن وقعت عيني عليها، صورتنا معًا، نظرت لها ولم أدرك الوقت المستغرق لكن دموعي كانت تدرك، شعرت حينها أنك لم تَمُت.

_أيه عجبتك الصورة؟.

_حلوة أوي والنبي يابا.

_أنا عامل فيها أيه؟.

_كأنك بقيت اتنين يابا وحدة في الورقة والتانية في قلبي.

نظرت حولي ولم أجدك، أمسكت الصورة وقبلتها كثيرًا، أحضرت حفنة دقيق، خلطتها بقليل من الماء حتى صارت عجينًا وضعتها خلف الصورة، لصقتها على الحائط أمام الأريكة التي أنام عليها.

مر يوم والثاني، الباب لم يتوقف عن الطرق؛ هناك من يطمئن عليَّ، هناك من يسأل عن موعد فتح الكُتاب، ذات مرة كانت طرقاته مهذبه ورقيقة، عندما فتحت الباب وجدتها أم وسمة ترتدي زي الحارة (الملايا اللف _اليشمك) لا أرى شيئًا منها سوى عينيها الحزينتين شعرت بحزنهما كأني أصبحت مكشوفًا عني الحزن من كثرته في قلبي، سألت عن أحوالي، عزتني في أبي، صمتت قليلًا ثم قالت:

_وسمة تعباني آوي يا عبد الرحمن بوديها وأجيبها من المدرسة، كل ليلة مش مبطلة بُكا ولا سؤال عنك وأنت مش بتسأل عنا خالص.

_معليش يا ست نجاة موت أبويا والمنظر اللي شفته مش قادر أنساه.

_لازم تخرج تصلي وترجع تاني للدنيا هي دي الحاجة الوحيدة اللي هتنسيك المنظر وتفرح أبوك في قبره، أبو وسمة قلي أن مصروفك هتاخده حتى لو موصلتش وسمة بس أنت عارف أنه مسافر من قبل الحادثة؛ أول ما ييجي هجبلك فلوسك، أنا عايزاه يرجع يلاقي راجل واقف معانا ولا أنت مش هتوقف معانا؟.

لأول مرة أبتسمُ منذ الحادثة انتبهت لوقوفها خارج المنزل، عرضت عليها أن تستريح بالداخل فأخبرتني أنها ذاهبة لإحضار وسمة.

من غيرها كان يستطيع أن يخرجني من حزني؟، بدأت أخرج من بيتنا حتى أستفيق من الصدمة وأستعد للأخرى.

مر يومان أو أكثر حياتي كما هي، الاختلاف الوحيد هو أنت يا أبي لم تكن في حياتي، اختزلت وجودك في ذلك الإطار الورقي، أتحدث معك بالساعات، أنتظرك تحدثني لو لمرة واحدة!، ولم يحدث!، أنا لم أيئس عندي أمل أن تعود أو تخرج من هذه الصورة تعاتبني.. تلومني.. على تركي لك في هذا اليوم المشؤوم، أعود أعاتبك.. ألومك.. لمَ ذهبت إلى القبر وحيدًا وأنا مؤنسك وصديقك الذي يعرف عنك أدق تفاصيل حياتك، فراقك يا أبي لا يعوضه شيء لكن وسمة حاولت معي كثيرًا في إخراجي من تلك الأفكار،

ذكرتني أن الصور للحفاظ على أجمل اللحظات مع أحب الأشخاص لنا ليس لاسترجاع الموتى والتحاور معهم، لا أدري أنها حقًا تريد إشغالي عن التفكير أم أنها تتحدث بجديه عندما قالت أنّ أروع اللحظات وأحبها إلى قلبها عندما تشاهد تلك الصورة العفوية التي التقطها المصور وأنا واقف بجوارها، وعدتني بأن سيأتي يوم أرى الصورة وحينها سوف أصدقها في كل المدح والإعجاب بها.

****

كم أنت مسكين يا نشأت، ما هي غلطتك؟، ما هو ذنبك الذي تدفع ثمنه الآن؟، أراد أن يثبت أن الحب لا يعرف قيود وتقاليد لكنه فشل، دفع ثمن فشله غاليًا، لكن ما زال هناك بصيص من الأمل، نعم هناك أمل طالما عم نشأت ومريم على قيد الحياة ستظل المعركة مستمرة، لابد ألا يستسلم عم نشأت، لابد ألا تموتي يا مريم.

كل هذا الإحساس كان بداخل عوض وهو ذاهب لصديقه حتى يعود للطريق الصحيح.

ذهب لمنزل عم نشأت، وجده جالسًا أمام المائدة، الطعام الطازج لم يتناول منه شيئًا، سأله من أين لك هذا؟، رفع يده بإشارة منه تدل على عدم معرفته، جلس أمامه قائلًا:

_أنا لسه جاي من عند بار الخواجة، يرضيك صحبك ونسيبك يدخل الأماكن دي؟.

_أنت اللي دخلت الأماكن دي برجلك محدش وداك.

فرح عوض لسماع صوت عم نشأت بعد كل هذه الفترة، فبادره بالرد:

_لا يا صاحبي أنت السبب، صاحبي وخال بناتي بيضيع، مقدرش أسيبه، روحت أفهم أيه السبب.

_عرفت؟.

_يارتني ما عرفت، صورة؟!.. صورة على الحيط ضحكت الناس عليك وضيعت مريم منك.

_طبعًا رميت ودنك، صدقت كل الكلام اللي بيقولوه عني الخمورجيه هناك أني مجنون، بكلم نفسي.

سكت للحظة حاول فيها إيقاف دموعه أن تظهر، لم يستطع فأكمل ودموعه على خديه:

_الصورة دي الحاجة الوحيدة اللي مصدقاني، بحكي وباخد راحتي معها، الصورة دي.....

انتفض عوض من مكانه حتى لا يكمل كلامه قائلًا:

_الصورة دي خدعتك، كذبت عليك لا هي سمعاك ولا حساك، فوق بقي حرام عليك، مريم ضاعت منك فاضل أيه تاني؟.

فصل الصمت بينهما، قرر عوض أن يتركه عسى أن يفكر ويراجع نفسه، ظل عم نشأت جالسًا أمام المائدة ينظر للطعام يرى ما لا يستطيع أحد أن يراه، جاءت مريم وصديقه الشاب ووالداه، ابتسم لهم وابتسموا له، فرحب بهم وأطلق روحه تسبح معهم.

مر النهار، أتى المساء، تعكز عم نشأت كعادته إلى أن وصل للبار، جلس في مكانه شرب مشروبه المفضل، نظر للصورة، حاول أن يصدق ما قاله صديقه له ولم يستطع، أشار بإصبعه السبابة إلى الشاب:

_أوعى تزعل من عوض هو مش فاهم إن الأرواح موجودة حولينا بيحسوا بينا، بيتأثروا كمان، الناس يا صاحبي درجات في اللي منهم بيشوف عشر سنين قدام، فيه ما بيشوفش تحت رجليه، فيه اللي بيحس بكل اللي

حوليه، فيه اللي ما بيحس حد بيه، مش ذنبي ولا ذنبك إننا في زمن غير زمنا، ده قدرنا يا صاحبي.

خرج عم نشأت من البار لا يدري أين يذهب فوجد قدمه الملتوية تأخذه إلى الحارة التي تسكن بها مريم، وقف في أول الحارة استند على الحائط، ظل ينظر عن بُعد لنافذة غرفتها المضيء بالشموع، سأل نفسه هل هي ما زالت مستيقظة مثله، الوقت قارب على آذان الفجر، أم هي نائمة ونسيت أن تطفئ الشموع؟ لا يعلم لكن ظل ينظر إلى غرفتها حتى غلبه النعاس، أستيقظ على ضوء الصباح، وجد نفسه نائمًا مستندًا تحت حائط، نهض من مكانه يتساند على كل شيء حوله إلى أن وصل منزله، دخل غرفته يكمل نومه ليذهب في المساء إلى صديقه الشاب.

من حسن حظ مريم أنها من عائلة ميسورة الحال ويخافون عليها كثيرًا، كانت زيارتها إلى الأطباء دائمة ولا تنقطع، بجوار سريرها مجموعة من الأدوية تجاوز عدد الأدوية في (الأجزخانة) الأقرب لديهم، هذا حرصًا على حياتها هي فقط، لا يهم عائلة مريم سواها أما الطفل القادم فهو شؤم لا أحد يريده لأنه من صلب أقذر رجل يعرفونه، حاولوا كثيرًا أن يداروا إحساسهم.. مشاعرهم.. ولم يستطيعوا، ما كان على مريم سوى الصبر واستسلامها للأمر الواقع حتى ترى المولود، الشيء الآخر الذي يصبرها أيضاً هو رؤية عم نشأت من بعيد كل ليلة في أول الشارع دون أن يعلم حتى لا تثير جنونه ويحاول أن يلقاها.

في يوم عند خروجي من المسجد بعد صلاة الفجر وجدت الثعبان ذا الملمس الحريري ينتظرني أمام منزلهم، معه وسمة:

_أزيك يا عبده.. البقاء لله في والدك.. أم وسمة قالتلي على وقفتك معاهم، أنت فعلًا راجل، عمرك ما خيبت ظني.

ردَدْتُ له التحية، قبلتُ عزاءَه، رحبتُ بعودته للحارة التي كانت مظلمة في غيابه وأنارها وجوده، ابتسمَ ابـتسامة لا أحبها، مد يده بالنقود عوضًا عن مساعدتي لهم، كالعادة حاولت الرفض لكن بإصراره وافقت، قال لي كلمه أثناء أخذي النقود وهو يضغط برفق على يدي:

_والله مش عارفين من غيرك هنعمل إيه يا عبده.

كلماته كالسم في العسل أفسدت فرحتي بالنقود، لا أعد أشعر بطعم لها، فالكلمة شغلت كل تفكيري؛ ما معناها؟، لمَ قالها في هذا الوقت فور عودته من السفر؟.

آه لو كان ما يدور في ذهني حقًا، ستكون نهايتي فلا طعم للحياة بعدها؛ فقد أبي يعني وحدتي إلى الأبد؟، فقدي لوسمة يعني انتزاع قلبي من مكانه، سأشعر حينها أني حيوان لا إنسان، ظللت شارد الفكر طوال الطريق، لم أسمع.. لا أرى شيئًا سوى صوته.. عينيه وهو ينطقها.

أمسكت وسمة يدي، كانت هذه المرة الأولى التي تفعلها، انتبهت لها وجدت عينيها الملائكية مبتسمتين:

_مالك يا عبد الرحمن في أيه؟.

_معرفش يا وسمه، هاتي الشنطة أشيلها عنك.

_سيبك من الشنطة أنت ساكت ليه؟.

بدون أن أرد تمكنت من أخذ الحقيبة منها، لم أستطع أن أقول لها عن سبب شرودي معها، لأني أراها صغيرة، لا تستطيع فهم مشاعري نحوها لكن فاجأتني بقولها:

_بابا وماما مبسوطين منك لكن مش أكتر مني.

_أنتي عارفه أني بحبك؟.

قبل الرد نادت عليها إحدى صديقاتها، نظرت حولي وجدت نفسي قريبًا من باب المدرسة خشيت أن يراني صديقاتها بملابسي المتهالكة ويحرجني أمامها، أعطيت لها الحقيبة، مشيت مسرعًا من أمامها قبل سماع ردها الذي كنت انتظره منذ أول يوم رأيتها فيه، برغم عدم اللحاق بسماع ردها لكني كنت في غاية سعادتي بما قلت، يكفيني الآن تعلم أني أحبها، من هذه اللحظة لم أخفِ مشاعري.

مرت الساعات ببطء شديد ممل لا أطيقه، وكل ما يهون عليّ الأمر صورة وسمة في ذاكرتي، كانت كمثل الصورة التي أعلقها أمامي على الحائط، مر سؤال في بالي كيف كنت أضعك في هذا الإطار الورقي أو كيف كانت تمر أوقاتي معكِ في شريط فوتوغرافي قابلة للطبع والتحميض، من الممكن تمزيقها وإلغاؤها من حياتي أو الاحتفاظ بها على حائط بجوار من نحب لو لم يهدنا والدك هذه الصورة؟.

عاند معي الوقت، لم يمر فاضطررت أزاحته بيدي.. بعقلي.. بكل جوارحي وهو على إصراره، لم يمر؛ جاء وقت الظهيرة أقمنا الصلاة، أسرعت مهرولًا نحو المدرسة لاستقبالها، كما كان الوقت يداعبني ويلعب بأعصابي فوسمة فعلت مثله، المدرسة على وشك أن تغلق أبوابها، أنا منتظر إيَّاها ولم تأتِ، ناديت لفتاة رأيتها مع وسمة عدة مرات، علمت أنها صديقتها، تجلس معها في الفصل، ملابسي كانت محرجة، لكن لا وقت للمظاهر وقلبي يحترق، اقتربت من الفتاة وأمها:

_إذا سمحتي يا هانم؟ بنتك ماتعرفش صحبتها وسمة فين؟ أصلي بقالي ساعة مستنيها هنا ومجتش.

ردت البنت بابتسامة كأنها تعلم علاقتي بوسمة ليس مجرد حامل لحقيبتها:

_باباها النهاردة جيه أخدها، شكلها مش جيه هنا تاني لأنها سلمت على الفصل كله وودعتنا، إحنا كلنا قعدنا نبكي عليها، لكن أزاي أنت متعرفش أنها مشيت ومش جاية تاني؟!.

كلامها كالصاعقة جعلت جسمي يرتجف والعرق تصبب من جبيني، بدأ كقطرات الندى إلى أن أصبح سيولًا ولا أكذب إن قلت أنهار حتى جلبابي ابتل من غزارة العرق، لا أعلم ما قلته للفتاة من هواجسي والأسئلة والأجوبة التي تدور في عقلي الذي كاد ينفجر من كثرة التشتيت، لماذا لم أعرف أنها خرجت مبكرًا؟ لماذا لم أرَ الرجل السافل الحقير في صلاة

الظهر؟، طالما كان موجودًا في دارهم ومعه وسمة؟ ما الذي يخفيه الثعبان؟، هل هذا تفسير ما قاله في صباح اليوم؟، إذًا لابد أن أذهب مسرعًا إلى بيتهم، أتأكد من كلام الفتاة، لابد أن أجد إجابات الأسئلة التي تدور في بالي وأهم سؤال لماذا أراه أفعى ليس لها أمان؟.

أسرعت وأسرعت نحو حارتنا، لم أدرك أن المسافة بعيدة هكذا ووسمة ليست معي ومشواري أصبح طويلًا، كانت تهون علي، تملأ كل هذه الفراغات، الآن بدونها أشعر بأني نقطة ماء في بحر أو ذرة رمل في الصحراء.

دخلت الحارة كالمجنون الباحث عن عقله، كالطفل الضائع من أمه، لم أقف مكتوف الأيدي هذه المرة.

كنت مكتوف الأيدي مع أمي المسكينة الطيبة وفارقتني، أبي الشيخ التقي.. طريقي للجنة.. افتقدته؛ فلم أسكت، لا أسامح نفسي إن ضاعت مني وسمة وأنا مكتوف الأيدي.

أحلام سنين أراها تتوارى من أمامي في الشوارع، بين الناس، كل ما أتخطى شخصًا أو أعبر شارعًا أراها ما زالت تُبعد عني وتتوارى، اقتربت من أول شارعنا، كان في هذه الوقت كل شيء ضدي الشمس، الرياح، الأرض غير الممهدة للسير، لاندفاعي الشديد في الجري مزق حذائي المهلهل فرميته، تعرقلت قدمي بالحفر والحصى الذي كان أمامي، سالت الدماء مني على الأرض، كأن قدمي تبكي مثلي لكن دماءً لا دموعًا، إلى أن وصلت للمسجد القريب من سكن وسمة، كانت لحظة أن مرت ألف عام لم أنسها

حين مرت أمامي نفس السيارة التي أتت بهم لتأخذهم، هذه آخر مرة عيني تحضن عينيها من خلف زجاج النافذة، نظرت لها وكانت تنظر لي، تبحث عني إلى أن لاقتني ففرحت لكن الدمع كذب فرحتها، مزج إحساس فرح اللقاء الأخير بحزن الفراق.. الابتعاد، مر أمامي شريط الذكريات بحلوه ومره حين جاءت لحارتنا، تشاجرت من أجلها، وصلتها إلى مدرستها، وصلتني في طريق طويل مظلم إلى قلبي ليعرف الحب ويضيء به، أجمل أيامي مرت كطرفة عين، ابتعدت نظراتها كلما ابتعدت السيارة، بدأت أجري وراءها، أُنادي:

_وسمة.. وسمة، رايحه فين يا وسمة.

كلما زادت سرعتي زادت سرعة السيارة، ابتعدت عني تمامًا، لم أرَ سوى غبار الإطارات، ضاع حلمي في سماع كلمة حب منها أو أرى صورتي معها، حطم اليأس كل كياني فجلست تحت الحائط أبكي، مغمض العينين لأستكمل ما فاتني في مخيلتي.

أخذتني أجنحة الأشواق، رأيتها غير سعيدة رأيت دموعها تتساقط واحدة تلو الأخرى على خديها، هي تكفكف دموعها بأناملها، رفعت دُميتها من حجرها، احتضنتها وزاد بُكاؤها.

توقفت أجنحت الأشواق عن اللحاق بهم عندما مد أحدهم يده لي وأنا تحت الحائط لأقف على قدمي نظرت له وجدته أحد الأولاد الذين ضربتهم عندما اعترضوا طريق وسمة، رفضت مد يده لي مستندًا على الحائط، عدت

لداري المهجور بعد رحيل أبي وحلمي الذي لم يكتمل، قررت أن أعود لحياتي التي رسمها أبي لي، أمشي على نفس خطاه من الدار إلى المسجد.. للكُتاب ثم أعود للدار مرة أخرى، لكن مع تزايد المشايخ والكتاتيب الرزق قل مما جعل المُدرس لم يحضر ويعتذر عن الحضور، تركني بمفردي أعلم وأحفظ، مع قلة التلاميذ عجزت عن سداد إيجار الكُتاب فأغلقه صاحبه في وجهي وقرر هدم الكُتاب وضمه لتوسيع المسجد، بدأت السبل تضيق بي وأشياء مـا في نفسي تقول بركة والدك تركتك ولن تعود؛ أي ذنب ارتكبته؟، ما هو خطئي؟!.

هل حبي لوسمة كانت معصية أم إخلاصي لوالدي وعدم تركه وتعليم أي صنعه أخرى بعيدًا عنه أصبح ذنبًا؟!.

طبعًا لا هذا ولا ذاك؛ لكن خوفي من إحساسي بأن القدر يخبئ لي صورة أخرى جعلني أهذي، وأخشى من بناء ذكرى تشبه الأخرى.

****

محاولات عوض وزوجته فشلت مع عم نشأت سواء في منعه للذهاب لصديقه كل مساء أو في زواجه مرة أخرى، ظلت الأيام كما هي لا تتغير في شيء، كأنها وقفت عن السير، أصرت ألا تمر، نفس الشمس الحزينة تشرق كل يوم، نفس القمر الهزلي يأتي، لا يضئ العتمة التي غرس فيها عم نشأت، أصبحت الصورة هي المتنفس الوحيد له يحكي لها كل ما يدور حوله، تسمعه، تتفاعل معه، لا تتفاعل مع غيره، ربما لأنهم أصبحوا أصدقاء، لا يوجد سر بينهم، فعم نشأت حكى كل كبيرة وصغيرة عن حياته، حتى أسرار مهنته لم يداريها عنها، أما مريم فاتخذت الشمعة صديقةً لها، لا تشعلها إلا بعد منتصف الليل حتى يأتي عم نشأت يجدها مضاءة فتؤنسه في ليله رغم بُعد المسافات بينهما، الشيء الآخر للشمعة فهي أيضًا مستمعة جيدة لمريم، الآن تعلم هي الأخرى كل شيء عن مريم، كم من الليالي جلست أمامها، ظلت تقص لها عن حبها لعم نشأت، كيف مر عليها مشهد فراقهما، ربما الشمعة تتفاعل أكثر من الصورة عندما تهتز وتتراقص لكن الصورة لديها الوفاء عن الشمعة بالطبع.

ذات ليلة دخل والد مريم وجدها أمام الشمعة تحدثها فدعا لها بالشفاء بصوت عالٍ وانتبهت له مريم، نظرت له، عاودت النظر للشمعة قائلة:

_شايف الشمعة دي يابا الناس بيقولوا عليها جماد مش بتحس، لكن صدقني يابا عندها قلب أحن من ناس كتير، كفايا أنها بتموت عشان الناس تعيش في النور.

في آخر شهرين في حمل مريم زادت عليها الآلام، المرض اللعين ينتهك جسدها، استسلمت له، صارت رهينته، تركت الحارة.. غرفة نومها.. أصبحت رهينة المستشفيات وغرفها، كثيرًا ما كانت تفقد الوعي بالأيام، نصح مدير المستشفى بسفرها إلى الإسكندرية لأن يوجد هناك مستشفى بها معدات حديثة، ستلقى خدمة ورعاية أفضل من هنا بمراحل.

انقسمت عائلة مريم لنصفين الأم والأب سافروا مع مريم للإسكندرية حيث تقيم عائلة أم مريم وستلقى علاجها إلى أن تضع مولودها بخير، النصف الآخر هم أخواتها في القاهرة لمراعاة أعمالهم وممتلكاتهم؛ أهم شخص مشتت، حائر ما بين صديقه في المساء وحبيبته المسافرة التي تصارع الموت وحدها، ترى كيف يذهب لها وهو منبوذ من أهلها؟، أين يقيم وهو ليس لديه أحد هناك؟، كيف سيقيم في هذه البلاد الغريبة، لجأ لأخته وزوجها ليساعداه بأي شيء ليسافر وراءها، لكنهما لا يملكان سوى قوت يومهما، لم يكن له أصدقاء خاصة بعد لجوئه لصديقه الشاب في الحانة، فضاقت به السبل لم يجد سوى منزله الذي ورثه من أبيه ليبيعه، كانت أخته العائق الوحيد له فهي وريثه معه، لها حق في بيت أبيها لكن سامحته في بيعه، أخذ حقها فيه، لأنه ببساطة هو الذي رباها وزوجها، هو الذي جهزها وجهز زوجها أيضًا، علمه صنعه يأكل منها حلالًا، يفتح بها بيتًا، هو ليس مجرد أخ بل هو الأب لهما.

وجد من يشتري المنزل، فورًا ودع صديقه الشاب ووعده أنه قريبًا جدًا سيعود معه طفله وزوجته ليتعرفا عليه ويتعرف عليهما.

كانت الإسكندرية غير مرحبة به وزاد جوها سوءًا عليه، اتخذ المستشفى بيته في الصباح منتظرًا في قاعة الاستقبال، بعد كل خمس دقائق يسأل عن زوجته، ليلًا ملقى تحت أسوارها نائمًا على الرصيف، فوقه غطاء مهلهل وهبه أحد المقيمين بجوار المستشفى له.

وسط نفور عائلة مريم وتوبيخهم له كان عم نشأت صابرًا، كلما رأوه في أي مكان يسمعهم وهم يتمنون أن يعود بهم الزمن ويرفضوا زواجه منها، لأنهم اعتقدوا لو لم تتزوج سيطول عمرها أو لم تصب بالقلب، حاول عم نشأت أن يفهمهم حقيقة الأمر ولا ذنب له لكن رفضوا سماعه، علل أن ظروفهم الصعبة وخوفهم على ابنتهم جعلهم صمًا بكمًا عنه وعن الحقيقة، ودعا لزوجته بالشفاء لأنها إن شفيت وعُوفيت بعد ولادتها سيعود كل شيء كما كان.

أصبحت هيئة عم نشأت منفرة للجميع، مر شهر ويزيد عن النصف، هو ملقى نهارًا في قاعة الاستقبال وليلًا في الشوارع محتفظًا ببعض المال للظروف القاسية، إلا أن وجد حالة ارتباك في حركة الممرضين واستدعاء الأطباء، حاول فهم ما يدور حوله لكنهم ابتعدوا عنه والسبب هيئته وانشغالهم بالأمر الخطير، لحظة مولد طفله.

الحمد لله تمت عملية الولادة بسلام، حالة المولود بخير، الأم حالتها مضطربة قليلًا لكن إن مرت ثلاثة أيام عليها ستصبح بخير، هذا ما فهمه عم نشأت من الممرضة التي لم تتحدث معه إلا بعد أن أعطى لها رُبع جنيه دفعة واحدة والرُبع الآخر عندما علم أن الله أعطى له بنتًا تشبه أمها تمامًا.

في صباح اليوم الثالث وهو منتظر شفاء مريم لتعود له ويعود كل شيء أفضل مما كان، نادته صديقته الممرضة في عُجالة، أخبرته إن مريم في انتظاره الآن، عند سماعه الخبر أتت له صحة من حيث لا يدري وكان الوهن ملازمه، اخترق صفوف الحضور من أهل مريم دون إن يعترضه أحد، فُتح له باب غرفتها كأحد كبار الزوار، وجد مريم وجهها منير كالملائكة مستلقية على ظهرها مدت له يدها، أسرع إليها وجلس على ركبتيه، قبل يدها كثيرًا:

_أيه ده يا نشأت؟ مالك محلو كده ليه؟ هو أنت خلاص نويت تتجوز عليا؟.

_ما عاشت ولا كانت يا ست الناس اللي تاجي مكانك.

_شفت بنتنا حلوة أزاي؟.

نظر بعيدًا عنها محاولًا تفادي ملاقاة عينيها حتى لا ينكشف كذبه عليها وتغضب وتنهار:

_طبعًا شفتها دي شبهك تمام، فولة وانقسمت نصين.

_خلي بالك عليها، أوعه تسيبها، دي بتحبك أوي.. أوي يا نشأت.

_عارف.. عارف يا ست الناس، يلا قومي عشان نرجع سوى ونعيش مع بعض.

_لا يا نشأت خدها أنت، اسبقني، أنا كام يوم هبقى كويسة وهحصلكم.

لم يستمر اللقاء طويلًا ماتت مريم إثر هبوط حاد في القلب، أراد والدها أن تدفن في القاهرة لكن أهل زوجته أقنعوه إن واجب عليه أن لا يُعذبها في آخرتها، يكفي العذاب التي لقيته في دنياها، دفنوها في مقابر العائلة، كان شرطه الوحيد أن يتركوا مكان بجوارها يدفن فيه.

عاد عم نشأت وحيدًا مكسور القلب والخاطر مهزومًا من الدنيا وأهلها، عاد للبار أخيرًا بعد ما يقارب الشهرين من الغياب، كانت هيئته غير الهيئة فلم يعرفه الحضور سوى اثنين الخواجة وصديقه، جلس في مكانه الخالي، شرب ما قدمه له الخواجة ونظر لصديقه:

_أنا خلاص مليش مكان هنا بعد ما بعت البيت ورفضت الإقامة مع أختي، ودعتهم قبل ما أسافر، قلت لازم أودعك وأمشي.

سكت قليلًا كأنه يستمع شيئًا من صديقه ثم قال:

_آه أنا هعيش جنب مريم حتى لو منعوني، هقعد جنب السور، إنما بنتي جدها منعني أن أشوفها ولا حتى المسها، لو عايز الحق هما هيربوها أحسن مني، أنا مليش لازمه خلاص، لازم أسافر.

سكت مرة أخرى ونظر له الخواجة اعتقد أنه يفكر، لكن عم نشأت كان يعطي فرصه لسماع صديقه فرفع يده:

_لا.. لا أنا وعدت مريم أني مش هعادي أهلها، دول مهما كان من ريحتها، مقدرش أزعلهم عشان خايف لتزعل مني مريم، أنا لازم أسافر أصلي مش هقدر أبعد عنها تاني، دي روحي في حد بيعيش من غير روحه؟.

سأل وهو لم ينتظر الإجابة، ثم ابتسم:

_نسيت أقولك مريم قالتلي إنها سمت البنت خلاص وأنا لازم أمشي كلمتها، أسمها حلو أوي يا صحبي، سمتها سرور.

رغم سعادة صديقه بخبر مولد طفلته سرور لكن شعر عم نشأت بغضبه بعض الشيء لإصراره على السفر والبُعد عنه، ساد الصمت بينهما، مر وقت طويل يتبادل كلاهما النظرات مع الآخر ولم يجدا ما يقال فوضع عم نشأت يده في جيبه ليحاسب عما شربه مع صديقه الصامت ذي النظرة المبهمة التي تدل على عدم فهم آي شيء يدور حوله أو غضبه الشديد منه، يبدو أنه لا يريد أن يتكلم أو يبدي رأيه مثل كل مرة، لكن حُزن عم نشأت كان طاغيًا على مشاعره مما جعله يعلو صوته حتى أثار انتباه جميع السكارى حوله:

_أنا عارف أنك مش هتفهمني ولا هتحس بيا لكن متأكد أن هييجي يوم وتقول كان عندي حق.

أنهى كلامه عم نشأت عندما تأكد من عدم فهم صديقه الجالس أمامه في الحانة، طلب الحساب دون أن ينظر إلى النقود التي في حوزته، أعطاها

للنادل، ذهب يتعكز على قدميه منحني الظهر قليلًا واضعًا يده اليمنى على فخذه الأيمن إلى أن خرج من الحانة وسلك طريقه.

****

مرت أيام لم أخرج من داري ودق الباب وأنا لم أنتظر شيئًا سوى ملك الموت، أدرك جيدًا أنه لا تمنعه أبواب ولا جدران، إنه لا يستأذن، إذًا لماذا يطرق بابي؟.

تساند على الحائط حتى وصلت للباب، فتحته فوجدت أحد الأولاد الذين ضربتهم من أجل وسمة، أظنه زعيمهم، من شدة الجوع تملكني الإرهاق فسأل عما بي؟، لماذا أنا مرهق فتظاهرت بالمرض، أصر على ذهابي لحلاق الصحة لكني رفضت، تمسكت بمكوثي بالدار، أقنعته بأن هذا وضع مؤقت، قريبًا سأشفى وأعود أفضل مما سبق، دخل داري وأعلم جيدًا هذا يغضبك يا أبي، لو كان الأمر متاحًا لخرجت من الصورة وطردتنا، لكنني مجبر على فعل هذا، رد إليّ روحي بطعام أخرجه من (خُرج) يحمله ومع رفضي باستحياء وإصراره ضعفت، تنازلت أمام شهوة الجوع، أصبح بيننا عيش وملح، هذه أول مرة؛ ليست الأخيرة.

توسعت صداقتنا بأصدقائه، في مجيئهم إليّ وذهابي إليهم كانت تراودني أحلامي.. حياتي السابقة.. فابتسم، أتمنى أن يعودوا لي فأنا لم أصدق إلى الآن أن أعداء الأمس من الممكن أن يصبحوا أصدقاء اليوم، مع مرور الأيام ظهرت نواياهم القذرة أنهم يريدونني شريكًا لهم ليس صديقًا فقط، حاولت الرفض في البداية لكن من ذاق النعيم من بعد الجوع يفعل المستحيل من أجل ألا يعود للجوع مرةً أخرى، علمتني يا أبي أن الجوع والشبع مجرد إحساس هناك من لديه إحساس دائم بالجوع رغم الشبع،

هناك من لديه إحساس بالشبع رغم أنهم لا يعرفون للزاد طريقًا، السر هنا في كلمة بسيطة إلا أن الشعور بها لا يأتي بين يوم وليلة كلمة إذا سكنت روحك عشت في أمان وهي الرضا، أنا من دونك لم أصل لها أو أستطيع العيش بها، فاخترت هذا الطريق وأخلع عباءتك، أرتدي عباءة هذا الزمن.

بدأت معهم مجرد مراقب يؤمن لهم الطريق حين يسرقون الحويصلات (المحلات) ثم المزارع، اكتشفت أن لديهم استعدادًا تامًا للإجرام في ظل فقر أسرهم وعدم معرفتهم بمصدر رزق أولادهم، لكن جهل هؤلاء اللصوص جعلهم عائقًا كبيرًا في تحقيق أمانيهم، كل ما يسرقونه يضمن لهم لقمة عيش ليومٍ واحدٍ فقط، لا يدرون ماذا يخبئ لهم القدر غدًا، أنا الوحيد بينهم المتعلم أو بمعنى آخر الوحيد بينهم الذي أحببت وسمة، بنيت لها قصرًا في خيالي، عالمًا بلا رذيلة، فقرأت.. سمعت.. تعلمت.. من أجلها، استيقظت أخيرًا لأجد نفسي أمحو كل هذه الأحلام، أصبحت لصًا في عالم الرذيلة.

غيرت كثيرًا من مفاهيمهم للسرقة، أقنعتهم بأنّ الفائدة في قيمة المسروق لا في كثرته، فأصبحت زعيمهم الذي يخطط.. يرسم، هم عليهم التنفيذ، غرزت فيهم مبدأ واحدًا هو احتمالية الفشل لو بنسبة واحد بالمئة تلغى العملية فورًا، من لا يدرك أهمية تدقيق الخطة أو يهمل في تنفيذها كما وضعت له يطرد بلا عوده.

ذهبنا من بلد إلى بلد، من قرية إلى قرية، المكان الذي نسطو عليه لن نعود له أبدًا مهما كانت سرقته سهلة، ثمينة، مرت أعوام على نجاح

خططنـا، بدأنـا بسرقة برتقالـة من القفص، ثم سرقنا القفص بأكمله، وصلنا إلى السيارة التي تحمل أقفاص البرتقال، محلات.. منازل أغنياء القوم لم تسلم منا، كبر السن بنا، ملامح الطفولة أصبحت شبابية، زاد المال، لا نعلم أين نخبئه إلى أن جاء يوم توقفت عن أي خطه أو عملية كما كنا نسميهـا، بدأت التفكير في التجارة بالمال الفائض وتقليل الاعتماد على السرقة، كان لابد أن نثبت تواجدنا وحضورنا في بلدتنا كانت مخاطرة أن يستخرج كلٌ منا بطاقة شخصية، جميعهم اقترحوا أن الأفضل لهم التخفي، يصبحوا لا وجود لهم، يظلوا متخفيين بأوراق مزورة لا إثبات عليها، أنا الوحيد الذي أصر على فرض أنفسنا في مجتمعنا وقد كان.

في يوم جاء أحد أعواني معه بطاقتي الشخصية، قبل أن يعطيها لي حدق بها جيدًا قائلًا:

_أيه الحلاوة دي.. والله باشا.

نظرت لها وأعجبتني، سرحت بها قليلًا، تخيلت وسمة هي التي تعطيها لي وتقول رأيها، فابتسمت والندم تملكني على ماضٍ جميل قد مات، لم يعد، قلت:

_لا يا صاحبي أنا عندي صورة أحلى من دي بكتير.

بدأت بتجارة الخضار والفواكه لأنها أسهل، المزارع كثيرة حولنا، نعلم كل كبيرة وصغيرة بها، من أكبر تاجر؛ من أفضل في التعامل معه عندما كنا نخطط لسرقتهم، زادت التجارة من تجار قفص لفاكهة وخضار إلى

أصحاب شوادر في السوق، حتى أحافظ على كل الخبرات لدى أصدقائي في السرقة افتتحنا تجارات على حسب هوايتهم حتى يجيدوا تطويرها وتكبر تجارتهم فتوسعت المجالات، أصبح لدينا محلات بقالة قطاعي وجملة، محلات قطع غيار السيارات، أدوات ميكانيكية، جميع أصدقائي تزوجوا إلا كبيرهم "أنا" جرى بي العمر أصبحت في أوائل الثلاثينيات، تعرفت على بنات، سيدات، جميعهن كن يردن الحصول على مالي أو التقرب للشاب الغني الوسيم، أنا لم أمانع، تركتهن يتقربن حسب رغباتهن ونالت صداقتي من أرادت الصداقة ونالت المال من أرادت قضاء ليلة معها، لكن جميعهن لم يدخلن قلبي أو حتى يتقربن مني، أصبحت وسمة ملكتي، معها مفتاحي، حقًا مفتاحي عبارة عن إطار ورقي لكن هو الشيء الوحيد الصادق في حياتي، لم يستطع أحد دخول قلبي حتى بعد رحيلهم بما يقارب الثلاثة عقود من الزمن، لم يستطع أحد كسر قفله ويدخل مكانها.

أنشأتُ مكتباً رئيساً يضم كل أعمالنا وأشغالنا، كنتُ مديره، طبيعي أضع أعلى مكتبي صورة لي، استطاع المصور أن يلتقط واحدة من أروع صوري لكن عندما نظرت لها لأعطي له رأيي لم أخبئ عنه أن هناك مصور خطف منه لقب أفضل مصور والتقط صورة لي لا تعرف الكذب.

كنت أهرب من ضغط العمل ولعنة المال بنزواتي في الليالي الحمراء، أخلع بذلتي المستوردة، أترك سيارتي (البورش **550**)، أذهب إلى أي بلد

لأتخفى وأبدأ بفعل كل شيء محرم عليَّ، كأني أهرب من أعين أبي في القاهرة وأدع شهواتي وملذاتي تنطلق، تبوح بما تخبئ نفسي، في البلاد والأماكن التي لا يعرفني بها أحد يقول لي ماذا تفعل يا ابن الشيخ أهذا علامُه لك؟ أهذه وصاياه؟، رغم أني مقل من فعل هذه الأشياء إلا أنني أشعر بتأنيب الضمير لأنني أبعد من أعين أبي ولا أستطيع البُعد من عقاب ربي، لكن حين عودتي للقاهرة بعد أفرغ ما تكبدته نفسي أبدأ صفحة جديدة، كأني مولود من جديد، لا أتذكر أي شيء من رحلتي هناك.

تعرفت على كثيرات من الفتيات والسيدات جميعهن يشبه بعضهن بعضًا، لكني لا أجد أحدًا يشبهها في جمالها أو طيبتها، كأن عالم النساء انشطر نصفين نصف هي ونصف هن، ذات ليلة اضطررت لألتقط صورتين من أجل سيدة تعشق الصور والاحتفاظ باللحظات الجميلة، أخذت صورة وقارنتها بصورة لزوجها، انتهت المقارنة لصالحي، رأيتها سعيدة بحصولها على لحظة قد تعبر الزمن فقلت لها:

_زي ما في صورة ممكن تخليكي سعيدة في صورة لو شفيتيها ممكن تغير حياتك، لكن صعب علينا نشوفوها.

ذات يوم كنت راحل من الإسكندرية انتبهت إلى شجار بين موظفي الفندق الذي أتخفى فيه وبين شاب في أوائل العشرينات، وجه صلب به حزم، نحيل الجسم، أنيق الملبس، لكن الموظفون يصفونه بالنصاب، خشيت أن أتشاجر معهم وأدافع عنه يظنون أني شريكٌ له، وقفت أشاهد

ذلك الشجار، أصروا أن يبرحوه ضربًا، ثم يسلموه للشرطة إذا ما دفع المبلغ الذي نصب به في المرة السابقة وهذه المرة، كان يقسم بالله أنه أول مرة يدخل هنا، فسألت كيف كان ينصب عليكم فعلمت أن له عدة محاولات، في آخر محاولة زوّر بطاقة شخصية (الورقية) لأحد الأثرياء ووضع الختم والكبسولة في آخر الصورة وبطاقة أخرى مزورة أيضًا، وادعى أن الثري هذا قادم هنا وهو أحد أقاربه لكنه جاء قبله ليتأكد من جودة الفندق، بعد عدة أيام تم السطو وسرقة أهم نزيل لدينا، عندما تم التحقيق لجميع النزلاء هرب هذا النصاب ووجدنا حقيبة ملابسه التي تركها مسروقة أيضًا والشرطة تبحث عنها، كل مرة بحيلة شكل، مرة ذو لحية بيضاء، أخرى سوداء، يأتي أشقر بشعرٍ قصير، زنجي بشعرٍ طويل، ملابسه مرة بجلباب، أخرى ببذلته الكاملة، مرة بقميص وبنطال ويتم اكتشاف نصبه بعد حدوث الكارثة لكن هذه المرة لن نتركه أبدًا، ابتسمت وأعجبت بموهبة هذا الشاب، أردت أن أدفع له، أعتقه من مصيره الحتمي بالسجن وضياعه، لكن حيرتي أني لا أملك المال الكثير وإذا دفعت له ما يطلبون أفلست على الفور ولم أستطع أن أعود إلى القاهرة، لكن فضلت أن أدفع له كل ما أملك حتى يطلقوا سراحه، الموظفون رفضوا مساعدتي له، أصروا أن يحبسوه حتى يتخلصوا منه، أمام التعويض المناسب قبلوا وأفرغوا كل الأموال من جيوبي.

خرج الشاب معي الذي لا أعرف اسمه الحقيقي إلى الآن فسألته:

_هاا هتقولي اسمك ولا هتنصب عليا أنا كمان؟.

كان يمشي بجواري في خجل، لم يستطِع رفع رأسه من الأرض فقال بانكسار:

_اسمي.. اسمي.. عصمت، شكرًا أوي يا أستاذ على شهمتك ووقوفك معايا، أنت لازم تديني عنوانك عشان أرد لك كل اللي أنت دفعته رغم أني أول مرة أدخل الفندق الزبالة ده ومعرفش هما بيتكلموا عن مين أصلًا.

_أصلاً هههههه.

نظرت له بعد أن استطاع أن ينتزع مني ضحكة عالية أفتقدها منذ زمن وأدركت أنني أمام شاب نصاب، خفيف الظـل، ووجدته يتواري خجلًا، نظر بعيدًا ثم عاود الحديث:

_أنت بتضحك ليه؟ أوعى تكون مش مصدقني والله أرجع ليهم وأطين عيشتهم.

وضعت يدي على كتفه ورَبَتَ عليه:

_لا قلبك أبيض.. أنا زيك مش أول مرة أدخل الفندق ده وأعرفهم كويس لو فيه حد زبالة يبقى مخك، في حد عنده ذكاء يفضل يسرق فندق واحد بس؟ أنت فعلًا حيرتني، أنت ذكي زي ما هما بيقولوا ولا أنت غبي زي ما أنا شايف؟.

الحزن يسطر على ملامحه واغرورقت عيناه بالدموع:

_أنا خلاص انكشفت في البلد دي، لو روحت أي مكان هتمسك زي المرة دي واللي قبليها في الفندق التاني.

_طاب بتسرق ليه؟ بطل وعيشها بالحلال أحسن.

_أنا مشكلتي أني بحبها وشيفها بتضيع من بين أيدي ومش عارف أعمل معاها أيه؟ كل ما أقولها تعالي نروح بعيد من هنا تقولي أنا خلاص بموت، عايزة أموت جنب أمي، مش عايزة أموت بعيد عنها.

استغربت من كلماته فأوقفته عن الكلام:

_أستنا.. أستنا.. أنت بتتكلم عن مين؟.

_عن سرور حبيبتي والبنت بتعتي.

_سرور؟!. سرور إيه؟ دي ولد ولا بنت؟.

****

الفصل الرابع

سئمت حياتي من مكوثي في فيلا الدكتور رأفت، ضيافته المملة طالت أكثر مما كنت أتصور، لم أسترح ساعة واحدة هنا يا أمي، قررت بيني وبين نفسي أعرف الدكتور رأفت أصول الضيافة، لا بد أن يعلم الجمال في ندرته لا بكثرته، جمال الضيافة في ترك الضيف على حريته ليس باقتحام خصوصيته، كلما بدأت أن أقرأ حرفًا أو سطرًا من مذكرات عبد الرحمن أجد الباب طرق عليَّ بإلحاح. بعيدًا عن تناولنا في أوقات غريبة الإفطار.. الغداء.. العشاء، كان يدعوني لتناول شاي العصاري والسهر، حضور حفلات السمر لأصدقائه، لا بد يا أمي أن تُعلمي الدكتور رأفت أصول الضيافة على الطريقة الإنجليزية.

لكن كانت هناك أوقات أحببتها معه، عندما يسرح في كلامه عن ابنته (نرجس) خريجة كلية اقتصاد وعلوم سياسية، يحكي عن مزاحها، جديتها، سألت عنهم، لمَ طال غيابهم، أنا الآن لدي أسبوع هنا؟، أوضح لي أنهم من الحين للآخر يذهبون جميعهم لزيارة عائلتها بالإسكندرية، لكن هذه المرة شعر ببعض الإرهاق وعدم استطاعته للسفر، ليفاجئه القدر بلقائي، هو سعيد بهذه المفاجأة، لكنه إصر لمكوثي هنا لمفاجئة زوجته.

لم أعرف لماذا طاوعته وجلست معه لأفاجئ زوجته، يالها من فكرة سيئة بالنسبة لي، ربما عند عودة زوجته تراني لا ترحب بي حيث يكون أنهكها السفر وينتهي كل شيء.

برغم من أن الدكتور رأفت فور دخولي أول مرة منزله طلب مني جواز السفر، نظر له نظرة اللامبالاة، أعطاني إياه إلا أنني شعرت أنه كان ينتظر شيئًا آخر من وراء نظرته لجواز سفري، بحكم صداقتنا، تقربنا، سألته لماذا لم يلقوا بالصندوق ويستخدموا الغرفة في أي شيء؟، إلا وكان رده غريبًا جدًا أن زوجته هي من كانت متمسكة بعدم تغيير مكان الصندوق والانتفاع بالغرفة، كانت بين الحين والآخر تسأل عن الصندوق هل هناك أحد سأل عنه؟، فزاد الشك لدي الدكتور رأفت، ظن بوجود سر في الشخص القادم من أجل الصندوق، لأجل ذلك نظر لجواز سفري، سأل عن اسم أمي، عندما تأكد أن ليس هناك تشابه اسماء بيني وبين زوجته من جانب الأب أو الأم أيقن أن زوجته تسأل وتدقق من باب حفظ الأمانة.

سألت نفسي هل سر تمسك الدكتور بي هو خوفه من اعتقاد زوجته أنه في غيابها رمى الصندوق؟ أم هناك شيء آخر؟.

في صباح اليوم التاسع طرق باب غرفتي بمنتهى الذوق والإلحاح "وعجبي على مزج هذه الأشياء مع بعضها"، ذهبت لفتح الباب وجدت الخادم يخبرني أن الدكتورة أمنية تريد لقائي، أشرت إليه بأنني قادم خلفه وأغلقت الباب، قمت بتهيئة نفسي جيدًا للقاء؟ خرجت باحثًا عنها في قاعة الاستقبال فنادى الخادم:

_في التراس يا دكتور.

دخلت التراس وجدتهما جالسين في انتظاري متوجهان للمزرعة فلم أرَ سوى ظهر الدكتور رأفت، بجواره سيده لا أرى جسمها من ضخامة قبعتها، أتيت من أمامها وألقيت السلام.

سيدة أرستقراطية ترتدي قبعة (sombreros) ضخمة موديل السنة مزوده بشبكة تحمي العين من الأتربة، لا يبدو عليها السفر حتى زينتها لم تتأثر، فالحاجب مرسوم عند أمهر الخطاطين؟ عيناها السوداوان الآخذتان تسحبانك إلى عالم لا تفيق منه إلا بطرفة من عينيها، بالكاد تبدو عليها ملامح الكبر فهي سيدة في عمر الخمسين، أدركت أن رأفت دكتور في الجمال ليس في الاقتصاد والعلوم السياسية فقط.

نسيت يدي في يدها وأنا أتأملها، صوتها جعلني أسحب يدي فورًا:

_أزيك، عامل أيه؟.

لم أفهمها وبالكاد أدركت إنها ترحب بي، ابتسمت لها وبلغتي الانجليزية حدثتها:

_مرحبًا، رحلة سعيدة سيدتي.

وضعت أطراف أناملها على شفتيها، ابتسمت، سألت الدكتور رأفت:

_هو ما بيعرفش عربي؟.

انحنى الدكتور على آذانها؟ ظل يهمس وهي تهز رأسها، كانت تردد وراءه الكلام:

_عربي.. فصحى!.. مبيعرفش.. مصري!.

ضحكت ولم أسمع ماذا قال لها لعدم ترديدها هذه الجملة، ثم حدثتني بالإنجليزية:

_حمدًا لله نحن هنا جميعًا نجيد التحدث بلغتك، مرحبًا بك وأتمنى أن تكون سعيدًا معنا دكتور آدم.

شعرت بالسعادة لسهولة التعامل معهم، رددت لها التحية، أبلغتها امتناني بتواجدي في مصر وضيافتهم.

سألتني من أين أتيت؟، حالتي الاجتماعية؟، أجبت كتلميذ مستجد في الفصل؛ جاء السؤال الأهم:

_من أرسلك هنا؟.

_أمي.

_أمك؟ من هي أمك؟

_أمي السيدة سرور العايدي، حرم الدكتور العالمي ساري بن العايدي.

فور سماعها اسم أمي ابتسمت بنصف وجه، نظرت لي نظره ترجمتها أنا بـ(نظرة لؤم.. خبث) ثم قالت:

_أممم سرور.. اسم جميل.

قرأت من نظراتها اللئيمة أنها تريد مني شيئًا، نظرت إلى الدكتور رأفت لأعرف هل هو يرى مثلي!، لكنه كان لا يرى شيئًا.

جلست معهم أتناول الإفطار، بين الحين والآخر أجد نظرة اللؤم من السيدة أمنية فتجعلني أرتبك، قبل أن أنتهي من تناول الإفطار جاءت ابنتهم.

ليس لديها نفس الشغف لتراني، عندما أتت من السفر ذهبت مباشرةً لغرفتها تفرغ حقائبها، تغير ملابسها، عندما انتهت من مهامها جاءت لتجلس معنا.

مدت يدها لتسلم انجذبت يدي لها دون أن أشعر حين تلاقت أعيننا، فعودها الرشيق، شعرها الثائر، سواد عينيها، كان من المستحيل أن يقاومهما أحد، شفتاها الورديتان حين رمت علينا السلام شعرت بسماع عزف أوركسترا كاملة في أذني، نعومة ملمس يدها حين سلمت عليَّ جعلتني أسترخي، أشعر بالانسيابية للحظات، ربما لأن ملكة جمال الشرق غائبة عني أصبحت عرضة لغزو أي أنثى لقلبي.

تعرفنا، تبادلنا تحية التعارف، جلست لتفطر معنا، حولت الجلسة الهادئة الأرستقراطية إلى مسرحية كوميديا، تماسكت قليلًا ببعض الابتسامات لكنني لم أستطع، أطلقت العنان لضحكاتي مثلهم.

دعتنا لنتجول في حديقة الفيلا، وافق والدها، لكنني رفضت لأتفاجأ بأمها ترفض هي الأخرى، جعلتني أعرق من شدة الارتباك كدت أتضاءل في مقعدي، لأصبح في حجم النملة بل أقل.

تشابكت يد نرجس بيد الدكتور رأفت، اختفيا عن أنظارنا، قررت أن أذهب بعد خمس دقائق لا أكثر إلى غرفتي وأغلقها جيدًا ولا أعطي فرصة لدخول أي شيء حتى إن كان الهواء لأتنفس.

تغيرت نظراتها لي وبدفء في صوتها قالت:

_كنت أخشى أن أموت قبل أن أراك، كانت دعواتي الوحيدة إلى الله أن يطيل عمري حتى تأتي.

_لماذا؟ ما الداعي؟.

_لا تستغرب، لا تسبق الأحداث، هذا السؤال ستجده في المذكرات.

_مذكرات؟! كيف علمتِ أنني أقرأ مذكرات؟.

ابتسمت وفي نظرتها فرحة لحقها حزن "التي كنت أراها لديكِ يا أمي عندما تحدثينني عن ذكرياتك" قالت:

_عبد الرحمن سبب زواجي من الدكتور رأفت بعدما باع هذه الفيلا لدكتور شهاب والد رأفت بأقل من قيمتها من أجل أن يسرع في زواجنا.

_هذا هو السبب؟.

_قلت لك لا تستبق الأحداث قريبًا ستفهم كل شيء.

ثم سكتت وأخذت رشفة من قهوتها التي أثلجت من كثرة نسيانها ثم تذكرت شيئًا، قالت:

_حقًا إلى أين وصلت في المذكرات؟.

_عبد الرحمن تعرف على عصمت النصاب الذي ذكر اسم أمي.

هل هي غضبت أم أنها سئمت من قلة أدبي في وصف الأشخاص!.. لا أعلم، لكن الخمس دقائق انتهت الآن كما وعدت نفسي أن أذهب بعدها لأستكمل هذه المذكرات اللعينة وأنتهي منها.

****

الإسكندرية (**1945**: **1968**م): (عصمت عزمي)

عائلتي متوسطة الحال أم وأب وثلاثة أبناء أنا أوسطهم يكبرني أخ، تصغرني أخت، تعلمنا جميعًا، هذا ما صمم عليه أبي المحامي (عزمي محمود)، القائل حينها البنت لها نفس حظ الولد في التعليم، كان لا يبخل علينا في أي طلب إلى أن وصل به الأمر أن يبيع بعضًا من ممتلكات أبيه، تخرج أخي مهندسًا معماريًا، تعين في إحدى المصالح الحكومية في القاهرة، أقام هناك، بقيت أنا وأختي مع والدينا، حياتنا كانت إلى هنا سعيدة.

بعد تخرجي في كلية الحقوق منتظرًا جواب تعييني أتي صديقي المقرب الذي أصر على ذهابي معه للكشف على معدته لأنه يشعر باضطراب في الجهاز الهضمي، لابد أن يستغل فرصة وجود أحد أكبر الأطباء في لندن للكشف عليه قبل عودته لبلاده.

ذهبت معه، أعجبت بفكرة صديقي، في حينها كنت مثله لدي نفس إحساسه، ذهبنا سويًا لكن جاءت الصدمة أن صديقي ليس به مرض، أنا أعاني من الفشل الكلوي، هذا المرض ليس له وجود هنا، لأول مرة كنت أسمع به، في النهاية اقتنعت بكلام الطبيب أنني مصاب؛ هذا المرض تم اكتشافه في انجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما أصيب الجنود بتلف الأنسجة الكلوية الصغيرة تدهورت وظائف الكلى، مع انتشار الوباء استطاع

الأطباء تشخيصه لكن ما زالوا في أبحاثهم للوقاية منه وعلاجه، اندهشت مما أسمع قائلًا له بسخرية هل أنا أول مـن أصيب به في مصر، ابتسم ساخرًا، فهمت من كلامه أن المرض موجود فعلًا منذ زمن لكن لم يتم تشخيصه وكيفية الشفاء منه، له ثلاث مراحل، أنا الآن في المرحلة الثانية، بعد محادثه بيني وبينه أدركت أن الشفاء منه مستحيل، نهايتي الموت حين أصل المرحلة الثالثة عندما أشعر بالإرهاق وآلام في العظام، يبدأ لون جسمي يميل للون البني.

كنت أتمنى أن أعيش لمدة أطول من ذلك حتى أعطي أبي حقه في تعبه من أجل تعليمنا وأعوضه عن ممتلكاته التي باعها من أجلنا، كنت أتمنى أن أعيش أكثر من ذلك حتى أرى أختي متعلمة، تشغل أكبر المناصب في الدولة وأقف بجوارها في ليلة عرسها، كنت وكنت لكن انتهت أحلامي مع بداية اكتشاف المرض.

خشيت من الحزن على عائلتي الصغيرة، فمرضي سيستنزف أموالهم وفي النهاية كما قال الطبيب ربما في المستقبل نجد حلًا له، إنما الآن لا شفاء منه، لذلك خبأت خبر موتي عنهم، هربت من المنزل، فضلت أن أظهر أمامهم بصورة الولد العاق الذي لا يُرجى منه نفعًا، أفضل من أظهر لهم بصورة الولد الطيب المطيع الذي ينتظره الموت، أعلم جيدًا الحزن على الولد الطيب أضعاف أضعاف الحزن على السيئ، أريد أن أخفف عنهم الحزن، ألا استنزاف أموالهم أكثر من ذلك.

تسكعت في الطرق جوعًا متسولًا، لم أجد من يحنو عليَّ، طريقي صعب، طويل، ليس لدي خيار آخر في نهاية عمري، وجدت نفسي أعمل صبيًا في أحد المقاهي، في آخر الليل يصبح مأوى للنوم فيه، من خلال المقهى تعرفت على جميع فئات الشعب من المحترمين إلى اللصوص.. النصابين، تعلمت من كل فرد شيئًا كان ينقصني حتى لو كان الذي أمامي صامتًا لا يتكلم كنت أتعلم منه كيف أصمت.

في ليلة بعد انتهاء يومي، قبل ذهابي للنوم خلف باب المقهى جاءت إحدى مطلقات المعلم تريد أن يعطيها مالًا لتنفق على بناته الصغار فرفض معللًا فقره وقلة رزقه، عندما زاد توسل المرأة طردها شر طرده، كدت أمسك (نبوته) الذي يتفاخر به رمز رجولته وأضربه خلف رأسه الغليظة، لكن تمالكت نفسي، هدأتها وأقسمت أن أرد لهذه المسكينة حقها.

من صباح اليوم التالي بدأت في سرقته يوميًا وأعطي أم بناته، أقنعتها أن لابد أن تحترس من الغد، اليوم أنا معهم، لكن ربما الغد لم تجدني، السيدة تفهمت الأمر، كانت تصرف جزءاً وتشتري بالجزء الآخر بضاعة صغيرة لتبيعها مثل الحلوى للأطفال، الشاي، السكر تضعهم في قراطيس ورقية، تصنع الصابون لتبيعه للجيران وأهل منطقتها.

بعد شهرين بدأت تجارة السيدة تتزايد، أصبحت لديها كشك خشبي على أول شارعهم ولم تعد تحتاج لزوجها، أشارت لي بالشكر، حفظت لي ذلك الجميل، دعت لي بالستر وراحة البال، قررت ألا أعطيها مالًا آخر لكن

بعد فـوات الأوان، لقد بدأ المعلم يشك في غـياب مطلقته وعدم المجيء له لتتوسل إليه، عندما علم أنها أصبحت تملك كشكاً لتبيع فيه، سأل عن مصدر مالها، لا أدري من قال له أني كنت أتردد إليها وفسر ضعف الإيراد للمقهى سببه سرقتي له وإعطاءها لمطلقته، قام بضربي وطردني أمام جميع زبائن المقهى وسكان المنطقة، ذهب لزوجته وكسر الكشك الضعيف المهلهل، بعثر بضاعتها على الأرض، اتهمها بسرقته لأنها على علاقة خفية معي.

قررت أن أنتقم منه ذهبت إلى أصدقائي النصابين واللصوص الذين تعرفت عليهم من خلال المقهى، نظرًا لإهانتي وقسوة قلبه على زوجته الأولى أم بناته حتى ترضى عنه زوجته الجديدة قررنا وخططنا لتدميره.

تقمصنا دور رجال الضرائب لنحصل أموال تهرب منها، مرة أخرى في زي رجال الشرطة نبحث عن هاربين، مسجلين خطر هو يؤويهم طبقًا لبلاغات ضده، في كل محاوله منا له كنا نسرقه، أحيانًا هو بنفسه الذي يعطينا كل ما يملك.

لم يستطِع كشفنا، أدرك أن كل هذا البلاء هو ذنب زوجته المسكينة فقرر أن يعيدها لذمته ويبني لها الكشك لتبيع فيه ويصرف عليها أيضًا، هي التي رفضت العودة له لأنه نذل ليس رجلًا، اكتفت ببناء الكشك لها، تعويضها على بضاعتها التي تلفت بسببه وتفرغت لتجارتها وتربية بناتها.

عندما ندافع عن الخير بقوى الشر يصبح النصب والسرقة سبيلنا لرفع راية النصر للخير، إذًا لماذا نجرّم الشر ونصدر عليه الأحكام؟.

أنا أسجل لكِ يا أمي اعتراضي عما أقرأ، هل هذا ما كنتِ تقصديه للزج بي إلى هنا؟، أنا إلى الآن لا أرى سوى عالم يسوده الشر بدافع الخير، الخير ضعيف بائس يحتاج من يحميه.

لا بد أن أتوقف عن هذه المهاترات، لم أسمها مذكرات، نعم لم أسمها بذلك لا بد أن أغلق هذا المجلد لأحمل حقيبتي وأعود من حيث أتيت، لكن ليس قبل أن أخطف لحظة لأقتنص صورة بالقرب من الجمال الوهاج، لو تطلب الأمر أن تشاركنا ذات العيون العابثة الحائرة بيني وبين زوجها الدكتور رأفت، ربما قد سئمت من ذلك المسن وتبحث عن عنفوان الشباب، لكنها أخطأت الاختيار.

أغلقت المجلد، خرجت من غرفتي باحثًا عن جميلتي، وجدتها جالسة تقرأ في كتاب باللغة العربية لم أهتم بمعرفته، استأذنت بالجلوس فرحبت، سألتني هل أنا سعيد بالإقامة بينهم أم لا؟.

على الفور جاوبتها إن الإقامة مريحة، كنت سعيدًا بتواجدي، بعد قدومها مع أمها أصبحت الإقامة مريحة جدًا وأكثر سعادة، ابتسمت وفهمت أني أغازلها، سألتني عن الصندوق وما وجدت به؟.

دون أن أدري وجدت نفسي منفعلًا ساخطًا على مجتمعها بأكمله وأتساءل كيف للشر يسود لمناصرة الخير؟.

محتملًا أنها غضبت لوصفي مجتمعها بالسوء أو بسبب سؤالي الذي قد يكون مستفزًا فأغلقت الكتاب الذي تقرأه، خلعت نظارتها، نظرت لي بحزم وجدية، قائلة:

_أقصى أنواع الشر هي الأحكام التي تنفذ ضد المجرمين لماذا؟، لمناصرة الخير، إذا أعطيت نفسك لحظة تأمل ستجد دائماً الخير مسالمًا يدعو للحب والسلام فكيف لمن يدعو لذلك أن يتخلى عن عباءته ويرتدي لباس الشر؟ إذًا لابد للخير أن يتمسك بمسالمته وترك إقصاء الشر بالشر لترفع راية الخير.

تمعنت في كلامها، أدركت أن هناك شيئًا ينقص مذكرات عبد الرحمن وعصمت هو رفع راية الخير، فما زال الشر يضرب الشر، لكن متى يرفع الخير راية النصر؟ أخشى أن يتأخر، يأتي بعد ضياعهم.

كلامي معها أنساني هدفي الذي خرجت من غرفتي لأجله، بمجرد أن تذكرته أردت كسب ودها وأحاول أن أنسيها أنني أخطأت في مجتمعها فسألتها عن الكتاب الذي معها ما اسمه؟، عن ماذا يتحدث؛ جاوبتني:

_اسم الكتاب (وصف مصر) تأليف علماء الحملة الفرنسية وترجمة (زهير الشايب).

_كنت أعتقد أنك تقرئين رواية رومانسية مثلًا.

_أحب الروايات بمختلف أنواعها، لكن ما تشغلني الآن هي بلدي، لقد اكتشفت أني أعيش بها ولم أدخلها إلى الآن.

_لا أفهم شيئًا.

_وراء كل باب عالمه الخاص إذا لم تجد المفتاح لم تستطع الدخول، ولا تدرك عالمًا ربما يكون هو الأفضل.

كلامها مشوقًا تذكرتك يا أمي عندما حرصتِ على أن أدخل مصر من حارتها ليس من أماكنها الفاخرة أو معالمها السياحية، كنتِ تريدينني أن أدخل من حيث دخل عبد الرحمن وعصمت، أنا استطعت الدخول لكن إقامتي في الفيلا منعني أن أكتشف عالمهم، هذه المذكرات ستساعدني لأكتشف هذا العالم، لكنني أخشى ألا أستطيع الخروج مثلك يا أمي.

قاطع كلامنا الخادم معلنًا موعد تناولنا وجبة الغداء، قمنا سويًا نحو المائدة وجدنا الدكتور رأفت وزوجته في انتظارنا تبادلنا التحيات، جلسنا نتسامر قبل تناولنا الطعام، ما زالت نظرات السيدة أمنية لم أفهمها، لا تريحني، جاء كبير الطهاة أخبرنا أن المائدة معدة، تمني أن ينال الطعام رضانا، ابتسم الدكتور رأفت، أعطانا إشارة البدء في تناولنا الطعام، توقف الكلام، انشغلنا بالوجبة إلا عيوننا أنا والدكتورة نرجس ما زالت تتحدث، عندما يميل حديثنا للطرفة نبتسم، إذا شاهدنا أحد لا يفسر أو يفهم معنى لابتسامتنا لكن بيننا الأمر كان يستدعي وجودها.

كم تمنيت ألا أحب في رحلتي، كم حبذت نفسي ودفعتها لكُره كل شيء من حولي، لكن سهام الحب الغادرة دائمًا تأتي من الأمام، سهام الحب الغادرة أصابتني واخترقت قلبي بلا وجع أو آلام.

انتهينا من تناولنا الغداء وقبل القيام من على المائدة نوه الدكتور رأفت أن تناول العشاء خارج الفيلا في أحد الفنادق الفاخرة بالقاهرة، شكرته وأبلغته أني جاهز للذهاب معهم، لكن الآن أريد تناول قهوتي في غرفتي لتكملة مهمتي الصعبة.

****

انتهت قصتي مع المعلم، بدأت قصتي مع النصابين واللصوص الذين تعرفت عليهم، أصبحت فردًا منهم بسبب تعاونهم معي في الانتقام من المعلم، قررت أن أصبح منهم لكن بشرط صغير جدًا، هو أن نسرق وننصب على مصاصي الدماء من تجار وأصحاب النفوذ ونتقاسم السرقات بيننا وبين الفقراء والمساكين، وتمت الموافقة.

في إحدى الليالي اكتشف أمري حين كنت متنكرًا في زي تاجر مواشي ولدي بقرتان (عينة)، ووراءي قادمة عربات محملة بمثل هذه البقرات إذا أراد هذا التاجر الشراء عليه أن يدفع مقدمًا حتى لا تذهب الصفقة لتاجر غيره، خصوصًا أن الحمولة قادمة لضربه في السوق، لكشف مواشيه المريضة غير الصالحة للاستهلاك الآدمي، كانت معي أمارة (علامة) عرفتها أثناء تجسسي عليه يستخدمها هذا التاجر مع صاحبه الذي يخصص تجارته للأثرياء وكبار الدولة، لأنه لا يتعامل مع الشعب، عندما علم بالأمارة وافق على الفور، قرر قبل الشراء أخذ بطاقتي الشخصية المزورة وجعل اثنين من رجاله يتبعاني إلى أن أصل لعربات المواشي، لو لزم الأمر يقتلونني إذا كشف كذبي، قبل أن يدفع لي ثمن عشر بقرات جاء التاجر صديقه صاحب الأمارة كشف الأمر، ضيع عليَّ الصفقة التي كنت سأهب ثمنها للأرامل والمطلقات والأطفال المشردة.

أنا الآن في ورطة، لا أعلم كيف أضعت الوقت في السمر لسرد حكايتي مع مصاصي الشعب وفخري بهـم، أسرعت مهرولًا حتى أفر منهم، تفرقتنا

عـن بعض أنا وأصدقائي المشاركين معي في هذه العملية، خلعت ملابس التاجر، أصبحت بملابس الأفندي العادية، استطعت الابتعاد عنهم، لكن أنهكني المرض، كليتي كادت تتمزق من الإرهاق ولم أقدر على السير فسقط أرضًا، استسلمت لمصيري الحتمي بالموت من المرض أو من رجال التاجر الخائن.

وجدت فتاة تقترب مني تريد أن تساعدني على النهوض، توسلت لها أن تبتعد من هنا لأننا في ساعة متأخرة من الليل والطريق خالٍ من المارة، وهناك رجال مختلون عقليًا أهرب منهم قادمون لقتلي، عندما سمعتني ارتبكت قليلًا، رأيت في عينيها خوفًا وقلقًا من أجلي، رفضت الابتعاد، اقتربت، جلست على ركبتيها وبأطراف أكمام قميصها ظلت تمسح عرقي.

أصوات الأقدام تشبه ركض الخيول وهم يلهثون خلفي، عندما رأوني توقفوا مصطفين حولي حتى يتأكدوا أني أنا النصّاب أم لا، لكن صرخت الفتاة في وجوههم جعلهم يبتعدون:

_جوزي بيموت.. حد يساعدنا.. الحقونا يا ناس.

_ما شفتيش حرامي بيجري من هنا.

_آه في واحد كان بيجري.. عدى من هنا وراح هناك.. والنبي حد يساعدنا.

تركونا وركضوا في الاتجاه المشار إليه، شكرتها لكنها تأثرت بكلامهم، شعرت أنها تنفر مني ثم نظرت نحو الرجال قليلًا وعاودت النظر لي:

_أنت فعلًا حرامي؟.

كنت أتألم لا أستطيع أن أرد فاكتفيت بالنفي، سرعتها في تصديقي جعلني أخاف عليها، إنها حقًا فتاة نقيه، لكنها في لحظة غيرت ملامح وجهها كأنها تريد أن أرى وجهًا آخر غير بريء منها، قالت:

_طاب أحلف بربنا أنك مش حرامي.

ابتسمت بنصف وجه وأغمضت عيني...

ساندتني إلى أن وصلت غرفتي المختبئ بها، هذه الغرفة كانت في يوم من الأيام ملقى للقمامة، استطعت بمعونة أصدقائي وأهل المنطقة أن أجعلها مأوى لي.

فور دخولي استلقيت على فرشتي في الأرض، قلت لها:

_هو فيه حرامي يبقى ده سكنه؟.

_أمال سكنه بيبقى أزاي؟.

_بصي على المعلمين، التجار، وأنتي تعرفي.

_أنا مليش دعوة أنت حلفت قدامي بربنا وخلاص، أنا ماشية يلاا سلام.

_أنتي رايحة فين أحنا في آخر الليل أستني أخد مسكن للألم وأوصلك.

أصرت على الرحيل ثم تحاورنا قليلًا، حكت لي قصتها أن اسمها مريم بنت إحدى العائلات الثرية في القاهرة، هاربة منهم حتى لا تتزوج من أحد أقاربها الذي لا تطيقه وهي الآن تائهة، لا تدري أين تذهب.

دار في ذهني فكرة أنني أعتني بها، أبحث عن أهلها، أبلغهم عن مكانها وآخذ مكافأة تعوضني عن حق البقرتين اللتين أخذهما التاجر الخائن هدية

مني له على خيانته للشعب المحتاج المسكين، وأعطي المتبقي من المكافأة للأسر الفقيرة.

أقنعتها أنها لدي في آمان لا تقلق لأنها أنقذتني من الموت، وساعدتني في شدتي، وافقت أن تقيم معي بصفه مؤقتة في غرفتي الضيقة ذات الحمام المشترك حتى نجد مكانًا يليق بها.

اجتمعت بأصدقائي، قصصت لهم قصة الفتاة، وافقوا على فكرتي، أخذت هدنةً من أعمالي الخيرية للتفرغ للفتاة حتى لا تهرب مني كما هربت من أهلها، تأخر المرسال الذي ذهب يتحقق من الكلام الفتاة ما يزيد عن أربعة أيام، كنت أنا في عالم آخر، أحببت الفتاه نحيلة القوام ذات المفاتن الصارخة المعلنة عن ذاتها من مقدمة ومؤخرة تلفت الانتباه في أقل حركة حتى لو كانت بسيطة، شعرها البني المُسدل علي صدرها ببشرته البيضاء، عينيها البنيتين الواسعتين الساحرتين أخاذة القلوب، جعلتني أسيرها، تمنيت أن لا يعود مرسالي من القاهرة، كانت دائمًا تحكي عن عائلتها العريقة الثرية فتثير لعابي كلما تخيلت المال الطائل الذي سأكسبه من ورائها.

جاء المرسال بعد أسبوع من ذهابه وكانت المفاجأة ألا يوجد هناك عائلة بهذا الاسم، لا في المكان الذي وصفته ولا في الأماكن المجاورة، لكنه صادف أثناء البحث حادث مشابه.

فتاة في ليلة عرسها هربت من بيت أهل أمها التي كانت تقيم فيه، هم الآن عائلة متوسطة الحال بعد وفاة والدهم وتفرق الميراث على أولاده.

عندما انتهى المرسال من كلامه سألته عن اسم البنت الهاربة فقال لي: سرور نشأت، اندهشت من القصة التي سمعتها وتناقض في كل شيء من مريم لسرور وعائلة ثرية لمتوسطة ما زالت بينهم صراعات الميراث، لا يوجد شيء واحد صحيح سوى أنها هربت قبل ليلة الزفاف، أدركت أن أحلامي تبخرت، ضاعت، لم أعوض حق البقرتين، لم أوفِ بوعدي للأسر الفقيرة.

قررت قتل بنت الكلب الكاذبة التي خدعتني بصورتها الملائكية، جعلتني أعلق عليها أملي وطموحي وأحببتها.

****

عند موعد العشاء ارتديت أفضل ما لدي، حضرت نفسي لأسجل معها لو لحظة واحدة أقل من جزء في الثانية لتستمر معي العمر بأكمله.

جلست كسجينٍ في زنزانة خمسة نجوم في انتظار الإفراج عنه، يأتي المنادي ليطلب منه الخروج، تأخر قليلًا، لدي شوق ولهفة في إسراع موعد اللقاء، بعد انتظاري عدة سنين طرق الباب كما تمنيته.

ظننت أنني أرتدي أفضل شيء وأصبح المميز بينهم، خاب ظني ووجدت نفسي الأسوأ، الدكتور رأفت وزوجته حينما رأيتهما تذكرت عندما قرأت وصف لكاتب لأحد الأمراء وهو يستعد لتنصيبه كحاكم على إحدى الولايات، أجاد الكاتب في الوصف، أجاد الدكتور وزوجته في تقمص الشخصية، واكتفيت أن أكون حارسًا خاصًا يتبعهم.

إنما ابنتهما كانت طائرًا يسبح في الفضاء لا تعرف الأرض ملمسًا لقدميها، كنت كالصياد يصوب نحوها بندقيته لإسقاطها أرضًا، من شدة جمالها أسقطت من بين يدي البندقية، وقارها له هيبة جعلني أتسمر في مكاني أشاهدها وهي ترفرف من حولي.

كانت سيارتهم تنتظرهم أمام الباب وصعدنا داخلها واتجهت نحو الفندق، طوال الطريق حوار يفتح بينهم ويغلق ويفتح آخر وأنا ما زلت صامتًا، داخلي هرج صاخب يكاد يفتك رأسي، قبل وصولنا للفندق قاطع حبل أفكاري صوتها:

_أراك صامتًا منذ زمن هل هناك سبب؟.

_لا.. لكن تذكرت قصة قرأتها في طفولتي عن صياد لا يجد متعته إلا في اصطياد فرائسه واحدة تلو الأخرى، ورأيتهم يعانون من ألم نيرانه، دون أن يشعر وجد نفسه ذات يوم هو الفريسة، لا يعرف مصيره، لقد كان هو صانعًا للأحداث فأصبح جزءًا منها، ما كان عليه أن يغامر بنفسه هكذا، ما كان عليه أن ينصت لمن قال له في يدك الاختيار.

_أممم قصة ممتعة، مشوقة، هل هي معك في غرفتك لأقرأها؟.

_لا.. لكن في الإمكان أن أقصها عليك كاملة بدون حذف أو نسيان شيء منها.

توقفت السيارة أمام الفندق، وتم استقبالنا، عند دخولنا الفندق أبهرتهم أضواؤها، زخارفها المعمارية، صرنا نتجول داخلها إلى أن وصلنا للمطعم، تحاوروا معي عن جمال الفندق، سألوني هل رأيت بمثل هذه من قبل؟، جاوبتهم بنعم لأنني تجولت في معظم مدن أوربا ورأيت بمثل هذه الأشياء بل هذا تقليد واضح لأروبا، لم أخبئ رأيي أن ضياع الجمال العربي هو تقليدهم بالأوربيين والاستعانة بمهندسينا في منشأتهم إلا أن ساد التذوق الغربي في بلاد الشرق وأصبحتم جزءًا مقلدًا لنا، استعارت نرجس انتباهي بمقولتها إن الذي كان يميز الطبع الشرقي، تحديدًا العربي البساطة وإتقان صنعتها التي كانت في الأغلب يدوية إنما جاءت الماكينات الأوربية أتلفت كل شيء من حولهم، وافقتها على رأيها وباغتها بسؤالي:

_من غير أوربا هل كنتم ترون زهو الأشياء وتطورها بشكل ملحوظ في المعمار والملبس والمشرب؟.

ابتسمت بنصف شفاه وقالت:

_من قال لك أن المظهر يشغل بالنا ونسعى إليه؟.

_كيف لا تسعون إليه؟ ونحن أصبحنا علامة، لمن يريد التباهي والأناقة عليه أن يلبس لباسنا ويقلدنا.

سكتت قليلًا وهي تتفحصني من أعلى لأسفل ثم قالت:

_عندما أراد الفاسدين أن يتميزوا عن المخلصين الصالحين اخترعوا كلمة (الموضة) حتى يتواروا من سوأتهم، حاولوا إخفاء وقاحتهم.. قبحهم.. بين الجدران والأقمشة المختلفة ألوانها، لكن يا عزيزي المخلصين الصالحين لا يحتاجون لكل هذا، ما زال الصالحين متمسكين بحياتهم وتقاليدهم إذا أردت أن تدخل مصر مثلي لابد أن تمر من بابها القديم الأصلي، بابها مفتوح لك أينما تشاء الدخول.

حطمتني كعادتها فنظرت إلى والدها هل كان يسمع ما سمعت؟، لقد فهم نظرتي له فواساني في حزني قائلًا:

_يا صديقي لا أحد يقف أمام الإعصار ويضمن النجاة.

ثم تمايل نحوي هامسًا في أذني:

_افعل كما نحن فاعلون، انظر أمامك والزم الصمت.

ضحكوا جميعًا، جلجلت أصواتهم في المكان، تصنعت ابتسامة أجيدها أمامك دائمًا يا أمي.

بعد تناولنا العشاء دعوتهم للمشي قليلًا حول حمام السباحة المجاور للمطعم، لم يلبِ الدعوة سوى ابنتهم، قامت لتمشي معي، صرنا نتجول في صمت وتأمل، ثم فاجأتني بصوتها الهادئ الدافئ وقالت:

_هل من الممكن أن تعرفني من أنت؟.

_نعم.. اسمي آدم.. أبي ساري بن عايدي دكتور في جراحة القلب عمل مساعدًا للدكتور العالمي (**Norman Edward Shumway**)، تعرف على أمي في الإسكندرية، اصطحابها إلى أمريكا لإجراء عملية نقل قلب وتمت بحمد الله بنجاح، بعد ذلك تم زواجهما لكنه دائم السفر، لا أراه كثيرًا إنما أمي ما زالت تحت المتابعة والعلاج في لندن، هذا سبب عدم مجيئها لأخذ الصندوق، لكن ما وجدته في الصندوق يمحو كل ما سررته عليكِ الآن، أشعر أني أبدأ حياتي من جديد.

_هل تعلم كثيرًا يتمنون أن يصبحوا مثلك؟، كثيرًا يتمنون أن يجدوا أنفسهم في عالم آخر ليبدؤوا حياة غير حياتهم، ليس عيبًا أنك بعد كل هذا العمر تبدأ من جديد، فرصتك أن تعيد ما أفسدت، أن كنت لم تفسد شيئًا تزيد من الخير، صدقني لديك الاختيار أن تصلح ما سبق أو تعيده، هذا الاختيار غير متاح لكثير من الناس.

سمعنا الدكتور رأفت ينادي لنا لنعود للمنزل، واتجهنا نحوه فأكملت:

_عليك أن تكمل ما وجدته في الصندوق، عند الانتهاء أعلم أن دورك بدأ.

أشرت برأسي بالموافقة، عُدنا للفيلا، ودخلت غرفتي.

****

ذهبت إليها مسرعًا وناقوس الخطر يدق في أذنيّ ودمائي تغلي بداخلي، وجدتها تنظف غرفتي، عندما شعرت بوجودي انتبهت وعلامات الدهشة ملأت وجهها قائله:

_مالك يا سي عصمت فيه أيه؟.

_أنتي مين؟، ليه حلفتيني على إني مكنش نصاب ولا حرامي وأنتي نصابة وكدابة؟.

_أنت حيلتك أيه عشان أنصب عليك؟ إنما كدابة ليه؟ عشان أنا بنت كنت خايفة منك، لما دخلت بيتك وشوفت حالتك قولتلك على اللي يريحك ويخليك تبعد عني ومتقربليش.

_كنتي خايفة مني! تخافي مني ليه؟.

_لأني معنديش ثقة في حد، كدبت عليك وهكدب على الناس كلها لأن الكدب هو اللي بيريحكم، محدش يقدر يستغني عنه.

كلامها عن الكذب أقنعني حقًا لو كنت أعلم أنها ليست من عائلة ثرية كنت تركتها تذهب إلى حيث تشاء بعد أن أتظاهر بوجود مشكلة في تواجدها مع شاب غريب عنها في غرفة واحدة، فهي الآن لم تملك شيئًا، عائلتها تكاد أن نطلق عليهم مستورين؛ العائد الذي سأحصله بعد تسليمها هو قتلها لهروبها قبل موعد زفافها، بذلك أصبح قد قدمت لأخوالها خدمة تربح ميراثها من أمها كما قدمت للتاجر الخائن خدمه من قبل.

جلست من شدة الصدمة، بدأت أتذكر أني صاحب مرض فشعرت بالإرهاق، استرحت قليلًا وقلت:

_أنتي اللي هربتي من أهلك قبل يوم دخلتك؟.

هزت رأسها بالموافقة:

_في حد يا بنت الناس يعمل كده؟.

_دي حاجة متخصكش، من هنا ورايح ملكش دعوة بيا وأنا مليش عيشة هنا تاني.

_هتروحي فين؟ أنا مش هسيبك تضيعي مرتين.

_ وأنت مالك؟

_أنا.. أنا.. هقولك بعدين، لكن عايزك تحكيلي حكايتك والمرة دي من غير كدب، عشان خاطري من غير كدب.

شعرت باختناقها والدموع بدت في عينيها وبصوت هزيل قالت:

_مش عايزة أصعب عليك، مش عايزاك تعطف عليا، حكايتي تخصني وحدي ملكش فيها دخل.

_أنتي أنقذتي حياتي وساعدتيني ووقفتي جنبي، وأنا لازم أقف جنبك وأساعدك، أنتي كنتي جزء من حياتي وبقيتي كل حياتي، أنا مش هسيبك مهما حصل.

هنا بكت ووضعت يدها على وجهها، لأول مرة أحتضنها وأضم رأسها إلى صدري، بعد مدة من البكاء المصحوب ببعض الأنين، بدأت قصتها بنفي

اسمها الأول مريم، قالت اسمها الحقيقي سرور نشأت البنّاء أما مريم هذا اسم أمها، ثم سردت قصة أبويها من بداية تعارفهما وكيف عانوا وآسوا من الحب حتى موت أمها وإقامة والدها بجوار قبر أمها.

والدها تركها في كنف جدها وجدتها ليرعاها، وهي في عمر الخامسة توفيت جدتها، عندما كبرت أصبحت في الحادي عشر من عمرها توفي جدها، أصبحت وحيدة لا مأوى لها بعد أن تم بيع بيت جدها وتقسيمه للورثة، كل منهم أخذ حقه إلا هي بحجة أنها قاصر وهم أوصياء عليها.

بين يوم وليلة وجدت نفسها غريبة بين عائلتها، ظلت تتنقل بين بيوتهم، كل حين تنام في مكان غير الآخر، أيام تجد نفسها نائمة على الأرض، أيام أُخر في غرفة أولاد أخوالها أو خالتها، جميع أهلها ينفرون منها لأنها وجه شـؤم فهي السبب في موت أمها وتشرد والدها ووصل الأمر إلى وفاة من يرعاها، ظلوا خائفين منها لولا خشيتهم من العار والفضيحة وملاحقة ألسنة الناس من حولهم لألقوها في الشارع.

اقترح أهل الخير على أحد أخوالها أن يزوجها ابنه المتشرد ربيب السهر ولعب القمار لعله يهتدي ويصلح حاله، وافق خالها لكن شعورها بالإرهاق المستمر وعدم مقدرتها على حمل الأشياء الثقيلة جعلهم يشعروا بأن هناك أمرًا ما، دخل الشك في نفوسهم، أتى الطبيب ليبلغهم أن شكهم في محله، إنها مريضه بالقلب.

لا أحد يعلم ما سبب إصابتها بهذا المرض، لكنهم يعلمون مصيرها كمصير أمها، لم تتم خطبتها من ابن خالها، مر ثلاث سنوات لا أحد يتقدم لخطبتها حتى جاء رجل أرزقي يعاني من أمراض الشيخوخة، على مشارف الموت، يحتاج من يخدمه، أراد أخوالها التخلص منها، الذي حسم أمرها مقابلتها بزوج عمتها صدفة وهي ذاهبة مع بنات جيرانها لفراشة عش الزوجية، وقفت معه وقال لها:

_ألف مبروك يا بنت الغاليين.

_على أيه يا عم عوض؟ دول عايزين يرموني ويخلصوا مني.

_لو أبوكي موجود مكنش سابك أبدًا، عارفه عمتك كانت هتاخد راجل مقتدر متجوز معاه أولاد وعايز يتجوز تاني وتبقى معاه وحدة أم العيال والتانية لزوم الدلع ولو التانية جابت عيال يشوف التالتة ماعندهوش مشاكل، جدتك وافقت عليه لما شافت فلوسه، عمتك بعتت لأبوكي قالت له الحقني أنا مليش غيرك بعد ربنا، كان جدك متوفي بقاله سنة، جيه نشأت جري وقف الجوازة ورمى الفلوس في وش الراجل، لما أبوكي اتشتم من الراجل قام ضربه، أداله علقة موت وكسر رجله من الحتة، جاني وقف قدامي وقلي أن عمتك عرفته أني بحبها، بصيت في الأرض مقدرتش أرفع عيني في عينه، قلي:

_لو أنت راجل بجد هات أهلك الليلة وتعالَ اتقدم لأختي.

_أنا مليش شغلانة.

_هعلمك تبني، هتشتغل معايا.

أبوكي راجل يا سرور لكن في زمن مش زمانه، بس لولا الصورة دي.. هي اللي ضيعته.

تركها ورحل يردد لنفسه نفس الكلمة:

_بس لولا الصورة دي.. هي اللي ضيعته.

قررت الهروب إلى الإسكندرية لمكان والدها بجوار قبر أمها لينجيها من أخوالها.

استطاعت الهروب، كانت الإسكندرية غير مرحبة بها وزاد جوها سوءًا عليها، بعد معاناة ومشقة وصلت إلى قبر أمها وجدت والدها ملقى بجوار البوابة، قد أصابه الوهن فاقدَ التمييز لم يستوعب أو يشعر بما حوله من سوء الطقس أو سوء نظرات المارة.

جلست أمامه وقالت:

_أبا أنت عارفني؟ أنا بنتك سرور فاكرني؟.

نظر لها بأسى، لم ينطق بشيء، حدقت في عيونه شعرت بدفئه وحنانه لكنه غير قادر على رفع يده، هز رأسه بتموج بطيء كالجالس في حلقة ذكر فأكملت حديثها:

_أبا أنا بضيع قوم أعمل حاجة، أنا هربت من أخوالي لو مسكوني هيقتلوني.

هنا عيناه امتلأت بالدموع واحمرت من حرارتها، فاستطاع رفع يده المرتعشة المتسخة وضعها على وجهها ومررها من جبينها لخدها إلى أن

وصل لذقنها، فجأة سقطت يده المنهكة وهز رأسه بالرفض، ثم عاد لوضع الجالس في حلقة الذكر.

أدركت إن محاولاتها فاشلة لإعادة والدها للحياة، لإعادته لصورته الأصلية، تركته وذهبت تبحث عن مصير آخر لها بدلًا من مصيرها بالموت بجوار والدها العاجز عن فعل أي شيء.

انتهت من قصتها وما زال رأسها في حضني، شعرت بمأساتها وحزنها فابتعدت عنها واقفًا وتمشيت أمامها مفكرًا في أمرها وما في استطاعتي لأجلها، بعد تفكير عميق أشرت لها قائلًا:

_بصي يا سرور أنا مقدرش أوعدك أني ممكن أرجع أبوكي ذي الأول ولا أخلي أهلك يرضوا عنك بعد ما هربتي منهم وتعيشي وسطيهم لكن اللي هقدر أوعدك بيه هو أنك هتعيشي؛ عمرك هيبقي أطول من عمري، اللي حصل مع أمك مش هيتكرر تاني، على رقبتي يا سرور أنك تعيشي نفس اللي عاشته أمك.

_ده قدر ومكتوب، أحنا في أيدينا أيه يا حسرة، ربنا رايد كده يا سي عصمت.

_ربك عادل، ميرضاش بالظلم، اللي حصل لأبوكي وأمك مش هيتكرر تاني، أكيد ربنا وقعك في سكتي عشان تعرفي أنه بيحبك.

****

الفصل الخامس

طلبت الدخول وأذنت لها، عاتبتني لعدم حضوري للإفطار معهم ولم أخرج حتى اقترب موعد الغداء، جاءت لتجبرني على الخروج والجلوس بينهم، كانت تظن أن امتناعي نتيجة قسوة كلامها بالأمس، رجحت أنني لن أخرج لمجالسهم مرة أخرى، لكنها كانت مخطئة يا أمي.

حزني وألمي منعاني البوح لها بالسبب الحقيقي، كيف أشاركها في إحساسي بالشفقة عليكِ، بعدما علمت بوحدتك ومأساتك في ذنب لم ترتكبين منه شيئًا، أو أشاركها في إحساسي بكذب عصمت الذي يعطي وعودًا هو ليس أهلًا لها كما فعل من قبل عندما وعد باستنزاف أموال التاجر وكشف أمره، فاخترت الصمت، أخبئ قصتك عنها حتى لا أشعر منها بالشفقة عليكِ.

عللت غيابي سبب إرهاق ناتج من تقلبات الطقس وارتباك المواقيت، نعم لم تصدقني لكنها تظاهرت بالعكس، وعدتها باللحاق بها إلى التراس وأتيت خلفها.

وجدتهم جالسين أمام المائدة منتظرين قدومي، جلست، أثناء تناولنا الغداء تحاورنا في شتى المجالات والمقارنات فرضت نفسها في كل جزء من كلامنا وجاء سؤال المقارنة الأصعب الذي يؤرقني دومًا، أعلم جيدًا مهما هربت منه سيأتي يومًا وأجيب عليه (لماذا لم تصبح مثل والدك في جراحة القلب واخترت جراحة الفم والأسنان؟)، بالفعل حاولت الهروب من السؤال أو كما أراه الهروب من المقارنة، بعد إصرار منها ومراوغة مني

أجبتها، كشفت لها الحقيقة أن خوفي وضعفي هما السببان وراء ابتعادي عن مجال أبي، لم أكن أحتمل رؤية ميت بسببي أو بغير؛ أشعر بالرعب وأخطر رعب يفزعني من نومي هو موت أمي على يدي أو أمامي، انتهينا من الطعام وانصرف كلٌّ منا لغرفته.

مرت بضعة أيام مهمومًا بالمذكرات وبقصتك يا أمي، أكون صريحًا معكِ شغلتني حبيبتي عنكِ قليلًا عندما كنت أراقبها، أدرس أفعالها، تحركاتها، تقريبًا علمت كل شيئًا عنها وعن أصدقائها الذين يزورونها.

في يومٍ جلست معها قبل موعد العشاء نتسامر ونتحدى بعضنا فيمن لديه أقوى النكات، طبعًا هزمتني، خسرت جميع مراهناتي، أثناء إلقائها نكتة أمسكت قلبي متألمًا من شدة الضحك؛ في نفس الوقت انتهى الدكتور رأفت وزوجته من رياضة السير حول حديقة الفيلا، جلسا جوارنا يستمعان لما نحكي، رمقتني بنظراتها السيدة أمنية، ربما سمعتني أطلب من نرجس التوقف حتى يهدأ قلبي فقاطعت حوارنا:

_ممكن تعرفني عن مرض القلب؟.

سؤال سهل إجابته لكن فهم الغرض منه هو الصعب، قررت أن أحقق مرادها حتى أكتشف نواياها، أخذت وضع أبي في الجلوس على المقعد أثناء إلقاء محاضراته لطلاب الجامعات، تناولت رشفة من كوب الماء، بدأت في الإلقاء مع النظر في عيونهم مع كل معلومة أعطيها لهم لأدرك حقًا وصلت أم ما زالت مبهمة، منعت أي أحد من مقاطعتي حتى أنتهي من محاضرتي.

قلت أنّه تم تشخيص المرض من زمن بعيد لكن علاجه هو ما يشغلنا وإذا لم نستطع الوقاية منه علينا البحث عن البديل وهو زراعة القلب، رغم أن مُعلم أبي

الدكتور/ **Norman Edward Shumway** يعتبر هو رائد عمليات زرع القلب لكن سبقه الدكتور/ **Christiaan Barnard** الجنوب أفريقي الذي أجرى عمليته عام (**1967**م) من نظريات وأبحاث أستاذ أبي وصديقه الدكتور/ **Richard Rowland Lower**، حقًا إن هناك عمليات ناجحة للحيوانات من قّبل الدكتور السوفيتي/ **Nikolai Sinetsen** عام (**1945**م) نقل قلب من ضفدع لضفدع، من قلب كلب لكلب، كلها حالات كتب لها الحياة بعد هذه العمليات، لكن مخاطرها على البشر جعلت جميع الأطباء يبتعدون، يعزفون عن هذه العمليات حتى عام (**1964**م) عندما قام الدكتور/ **James D. Hardy** بزرع قلب من شمبانزي لقلب رجل يحتضر ليعيش ساعة ونصف، عندما تعرض للهجوم وانتقادات اكتفى الأطباء بالأبحاث والنظريات بدون إجراء أي عمليات حتى فعلها الجنوب أفريقي، من حينها عمليات زراعة القلب في تطور وأصبحت أكثر أمانًا.

علت أصوات التصفيق من عائلة الدكتور رأفت، أخبرنا الخادم أن مائدة العشاء معدة، في انتظارنا، أعطى لنا الدكتور إذن الانصراف إلى المائدة.

****

أنصتُ له جيدًا ولم أقاطعه، صدقته رغم أنني لم أتنبأ بشيء من ذلك بداخلي؛ كيف استمعت له كل هذه المدة؟ كيف جذبني لعالم تركته منذ أكثر من ربع قرن؟.

أبطال قصته أشعر أني رأيتهم من قبل في زمن غير الزمن، بأسماء غير الأسماء، كأنه سؤال واحد والإجابات مختلفة، فمنهم من فقد عقله؛ منهم من فقد قلبه.

الشيء المشترك بيني وبين عم نشأت هي الصورة، ذلك الإطار الورقي الذي خرج من (الغرفة المظلمة) جعلنا سجناء عالمها المكنون بالغموض والأسرار، عم نشأت فقد عقله في وجود الصورة التي جذبته لأنها فقدت روحها المجسد في زوجته مريم، أما أنا إن وجدت الصورة التي تجمعني بوسمة ربما أجد عبد الرحمن الذي أفتقده، أشعر بإمكاني نزعه من داخل هذا الإطار الورقي وإخراجه ليأخذ مكاني، يعيد ما أفسدته بداخلي وبالمجتمع من حولي، بالنسبة لعصمت لا أعرف دواءه لأنه لم يدخل في (الغرفة المظلمة)، لم يكن حبيس الإطار الورقي.

نظرت لعصمت بعدما انتهى من سرد حكايته، كان بجواري جسد بلا عقل، حيث شرد عقلة في مكانٍ ما، كان لا بد أن أعيده، استحضر ذهنه مرة أخرى لي هنا حتى أجد حلاً لمشكلتي أولًا وهي فقداني لكل ما أملك من أموال وعدم مقدرتي للعودة لمدينتي، ثم نبحث عن حل لمشكلته مع سرور وكيف ينقذها وهذا أمره سهل.

بحثت عن أموال معه ليفاجئني أنه لا يمتلك أي نقود والأدهى والأمر أنه مطالب بعد يومين بسداد فاتورة المستشفى المحجوزة بها سرور، اتَّقد غيظًا من هذا الفتى منذ أن رأيته وهو لم يتوقف عن المفاجآت، لم أسمع منه خبرًا واحدًا يسر، عضضت غيظًا بأسناني وسألته:

_أيه اللي حجز سرور في المستشفى؟.

_من شهر حالتها تأخرت، كمان الرطوبة اللي في البيت أثرت عليها، المستشفى أخدت اللي ورايا واللي قدامي، هناك قابلت دكتور قلي علاجه في بلاد بره أكيد، أمُال أنا بنصب على الناس ليه؟ لأني عايز فلوس بأي طريق.

أسعدتني نيته للتوبة بعد أن أيقن أنه أحب سرور بصدق، جعلته يتمنى لها حياة أفضل من حياتها وحياته، أخبرني أنه سيهدي لها قلبه لأن مرضه بدأ يسيطر عليه وعمره قارب على النهاية، بموته سيعطي الحياة لمن يحب وهو تائب.

سألته عن أصدقائه لماذا لم يلجأ لهم، أجابني إن الفرد منهم لا يملك إلا قوت يومه ولديهم عائلاتهم وأسرهم، قلت في نفسي إنهم كانوا يحتاجون لشخص مثلي يخطط لهم مستقبلهم، يحدث نهضة في مستقبل سرقاتهم.

زادت صعوبة عودتي للقاهرة، شعرت أني مسجون داخل هذه المدينة، لا أستطيع الهروب، أبلغته أني غني، لدي أملاك ومشاريع أديرها وأستطيع علاج سرور ومساعدتها للسفر في الخارج، ربما هناك يجد لنفسه علاجًا وتعود حياتهم أفضل مما كانا يرسمانها.

اتسعت عيناه، كاد يطير من الفرحة عندما أقسمت له أني سأساعده هو وسرور لآخر مليم أمتلكه، وما قيمة المال الذي لا يستطيع إنقاذ روح إنسان أو إسعاده!.

نهض من مكانه وجذبني من زراعي في لهوجه مما آثار استغرابي وفضولي إلى أين يتجه بي؟، أبلغني أنه منذ شهر تعرف على أحد الأشخاص في المستشفى عندما تعثر في دفع قيمة الأدوية المطلوبة لسرور، دفع له القيمة كاملة ولم يكتف بذلك بل أصر على توفير العمل له، يعطي له أسماء الأشخاص المراد سرقتهم أثناء زيارتهم أو أقامتهم بالفنادق ويترك له التزوير وضرب الأوراق المطلوبة لاختراق الفندق والإقامة فيه، وتواجده هناك والتنكر في تجسيد الشخصيات نوع من التأمين والتهيئة لنجاح العملية أما السرقة لا يعلم عنها شيئًا فلها رجالها المختصون.

أعجبت مبدئيًا بهذا الرجل الغامض لأنه يعطي كل فرد مهمة حسب إمكانياته ومهاراته حتى يضمن نجاح خطته وهذا السبب الرئيسي في فشل جميع السرقات هنا، لأن الذي يخطط هو الذي ينفذ ويسرق ويدفع الثمن في النهاية لأنه يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء فتصبح العملية غير متكافئة.

أكمل عصمت حديثه معي بأن العمل مع هذا الرجل غير شاق والمقابل مجزٍ وهو سداد جميع مصاريف علاج سرور، حاولت معرفة اسم هذا الرجل أو مهنته لكنني وجدته يعرف عنه اسمه الأول فقط فريد بك، رجل أعمال، أي أعمال؟.. لا يعرف، سايرته بدون أي استغراب لما أسمع لأنه ملأ

حياتي في وقت قصير بجميع علامات الاستفهام ولم أجد بداخلي مكانًا لعلامة أخرى.

في أول مقابله مع فريد بك في مقهى إيليت في شارع صفية زغلول بمحطة الرمل المملوك للسيدة اليونانية الجميلة (كريستينا كوستانتينو)، استنتجت أنه رجل أعمال حقًا، لا تبدو عليه أية علامة إجرام، خشيت أن أصبح ضحية لدى المدعو عصمت المزور، انتظرت بعيدًا، لكنهم أمام عيني أنظر لتعبيرات وجهيهما، رأيت وجه عصمت مستعطفًا مكسورًا بعض الشيء وفريد بك لا يعطي له اهتمامًا، ينظر بعيدًا عنه معظم فترة الحوار، بعد فتره انتبه لي فريد بك، انتفض من مكانه مذعورًا، هنا سمعة صوته:

_أنت أكيد اتجننت.. أزاي تقابلني ومعاك واحد أنت نفسك متعرفهوش؟.

في وقت كان صوت عصمت خافتاً، متواصلاً للاستعطاف، واضعاً يده على صدره يربت عليها، غضبت لما فيه صديقي من إزلال، لم أتمالك نفسي فتوجهت إليهم، رآني فريد بك قادمًا نحوه فامتزج الخوف بالحذر في ملامحه، امتدت يدي بالسلام ولم يمد يده لي، بدون أن يتحدث أراد أن يذهب من مجلسنا فأمسكت يده وحدثته بلطف وحاولت إقناعه إني رجل أعمال مثله، لكني فقدت كل ما أملك من مال للعودة ورجوته أن يساعدني بالمال الذي يضمن لي الوصول لمكان إقامتي وسأرد له كل ما دفعه عند عودتي له مرة أخرى.

في بادئ الأمر رفض، حاول ألا يسمعني، بعد تفكير عميق وافق أن يساعدني بشرط وحيد، هو أن يأخذ موافقة شريكه، حاولت إقناعه أن المبلغ لا يستحق المشورة ولا يستحق كل هذه الإجراءات، لكنه أصر على شرطه الوحيد وذهب ليخبر شريكه.

انتظرنا بضع ساعات ونحن ننظر لبعضنا والخيبة تعلو وجهينا، عندما سيطر علينا الإحباط جذبت عصمت من يده بعصبيه لجلب المال بأي وسيلة من أي مكان يوجد به ما أريده من أموال فأنا لص وهو مزوّر، نصّاب، عند عودتي سأرد ما سرقته من هذا المكان، وستصبح هذه آخر ما أسرق لأنني تبت مثل عصمت، برغم أن سرور تخصه لكن قصتها مع عصمت جعلتني أتوب أيضًا، وإن نوى أن يعطي لها قلبه أنا نويت أن أعطي لها كل ما أملك حتى تحيا حياة كريمة، هي أولى أن تعيش، لا بد من الشر أن ينتهي ويستمر الخير.

عند خروجنا من باب المقهى وجدت من ينادي لعصمت، وقفنا نرى من المنادي.

جلست مرة أخرى مع عصمت وفريد بك، كانت المقدمة طويلة ومملة وأنا لا أريد أن أقاطع هذه الخطبة حتى لا يعيد منها شيئًا وأشرت لصديقي بعدم المقاطعة حتى ننتهي من هذا المأزق، فوجئنا في آخر الخطبة أن شريكه قرر مساعدتنا بمبلغ مجزٍ يغطي تكاليف عملية سرور وتكليف ما بعد العملية لكن بعد تنفيذ هذه الخطة التي معه؛ أخرجها

من جيبه، يبدو عليها عملية سرقة، نظرت لها وجدتها بالفعل هكذا وتاركاً لنا التخطيط والتنفيذ.

وجدت اسم الضحية، صورته، جميع البيانات التي تخصه مع مراعاة التدقيق الزمني والتوقيتات المناسبة للتنفيذ بدون كيفية التنفيذ، حاولت أفهم كيف يطلب منا تنفيذَ شيءٍ كهذا؟ أجابني كما أنتما واثقان من إعطائكما النقود، قلت له:

_لكن الورقة دي مافيهاش خطة، أزاي هنفذها من غير خطة؟.

_عيب لما أرسم خطة وأنت موجود.

اندهشتُ كيف عرف أني أجيد التخطيط والسرقة وأنا لم أحكِ لأحد؟، وكل مرة أعرف نفسي برجل أعمال.

****

انتهت أنجح وأروع الليالي التي قضيتها هنا في غربتي بعد تلك المحاضرة التي ألقيتها عليهم، جعلتهم مذهولين من أدائي أكثر من وفرة معلوماتي وما أضحكني، على فراش النوم هو حلول السعادة وغياب النعاس، كأن بداخلي مكانًا لشيء واحد إما السعادة أو النوم، حاولت ممارسة ما تعلمته من تمرينات لجلب النوم لسريري، غلبني اليأس ولم أحقق مرادي، أدركت أنها ليلة من أطول ليالي القاهرة، خرجت متسللًا حتى لا أزعج من غلبهم النوم فاصطدمت بالدكتور رأفت جالسًا في إحدى أركان التراس منفـردًا بنفسه، ابتسم وأشار إليّ بالجلوس جواره، سحبت أحد الكراسي المصنوعة من جريد النخل المكسوة (بشِلَت) محشوة بالقطن وجلست بجواره، كنت أعتقد أنه سيسأل عن سبب إيقاظي بعد الثانية صباحًا، لكن باغتني بسؤال مباشر لا أعلم منه هل هو جاد أم مجرد مزاح نظرت له استرجع سؤاله، أحاول فهم مغزاه رغم بساطة السؤال (هل المعلومات التي حدثتنا بها حقيقة أم وليدة اللحظة؟)، وضعت ساقاً على ساق، استندت للخلف بظهري على الكرسي متخذًا وضع الرؤساء والملوك، أجبت حسب إلقاء السؤال:

_معلوماتي ربما تحتمل الصواب، ربما تحتمل الخطأ حسب استعداد المتلقي.

رأيت نفس نظراتي له سددت لي، شعرت بداخله نفس سؤالي بداخلي هل هو جاد أم يمزح؟، هز رأسه قائلًا:

_الحقيقة أني مدخن لكني لا أريد أن أصدق هذا حتى لا أشعر بتدهور صحتي.

أخرج من جيبه عود سيجار كوبي ماركة "**Monte-Cristo**"، معلوماتي عنها هي شركة أنشئت عام (**1935**م)، إلى الآن تطور منتجاتها لتصبح أفخم وأفخر أنواع السيجار، دائمًا تهتم بالشكل في أبهى صورها، أطلقت عليها "أنه الموت يا سادة في أبهى وأرق صورة"، انتزع الغلاف، قصَّ مقدمتها وجزءًا من مؤخرتها، وضع مؤخرتها داخل مبسمٍ خزفيّ جذابٍ، ثم وضعه في فمه، أخرج من جيبه قداحة ماركة "**Zippo**" التي تم تسجيل براءة اختراعها عام (**1936**م) من قبل الأمريكي "**George Grant Blaisdell**" وأحدث حينها التطور الأبرز في رحلة أداة توليد اللهب باستخدام سائل "**Naphtha**" أحد مشتقات النفط الخفيفة، فأمسكت يده محاولًا منعه من إشعال سيجارته طالبًا الحفاظ على صحته، ابتسم ووضع السيجار والقداحة أمامه وحدثني على المفارقات من إيقاد سيجارته في الخفاء خوفًا من علم زوجته وليس خوفًا على صحته، فسألته هل زوجته مخيفة؟ أجابني بالنفي، أكد على رقتها وخوفها على صحته وانشغالها دائمًا به لأجل ذلك هو يراعي خوفها عليه، قرر ألا يزعجها بإهماله لنفسه لأن هناك من يقلق ويحزن عليه، فقلت له بكل ثقة:

_لذلك لا توجد حقيقة مؤكدة.

هز رأسه بالموافقة، سأل لماذا أنا مؤمن بأن لا توجد حقيقة مؤكدة؟، أجبته بعدما حل مكان السعادة حزن وكآبة، بأني لم أضخم مفهوم الإجابة وأتحدث عن عدم اتفاق جميع البشر على عقيدة واحدة رغم إدراك أصحاب العقائد من أنّ هناك إلٰه واحد، وضاعت الحقيقة بينهم، أصبحت المعلومة الصحيحة هي التي تؤمن بها أنت ولا يهمك تكذيب الآخرين لها، بل سأحدثك عن نفس المعلومة الصحيحة التي تعرفها عني سيأتي يوم وتدرك أنها كاذبة؛ أنا لا أتحدث عن الاسم _العرق _حاضري _ماضيه_ بل أحدثك عن مضموني، ما تخفيه هيئتي الأرستقراطية هذه؛ وقفت في مكاني، استدرت نحو باب الخروج من التراس، مشيت قليلًا، ثم نظرت له وأكملت:

_ربما يأتي يوم وتتأكد من كذبها وخدعاها لك.

وجدته وضع المبسم المحشو بالسيجار في فمه، أشعلها، قائلًا:

_هل أنت على ما يرام؟.

أومأت برأسي بنعم، أكدت:

_عذرًا سيدي قطعت خلوتك، أزعجتك، لكني سعيد بتلك اللحظات الجميلة معك، حان موعد نومي.

تركته والدخان كاد أن يخفى ملامحه وذهبت لغرفتي.

****

تشاورت مع عصمت واتفقنا على القبول والخوض في هذه العملية البسيطة من أجل المقابل المادي.

منحتني الورقة معلومات غزيرة فاقت ما كنت انتظره، كدنا نحصل على اسم والدة الضحية، ونوعًا من طعامه المفضل، والغرض كلمة بسيطة في طرف الورقة (سرقة حقيبته).

ذهبنا حسب الاتفاق إلى فندق (سيسيل) بمحطة الرمل، المطل على ميدان سعد زغلول، يرجع اسم هذا الفندق لابن مالكه السيد "ألبرت متزجر" من المعروف أنه بني على الطراز الفلورنسي بتصميم المعماري الإيطالي الشهير "جوسيبي أليساندرو لوريا"، له خمس طوابق، من الطبيعي حصل كلٌّ منا على غرفة من أصل **82** غرفة.

حجز لنا فريد بك في نفس الفندق الذي سيقيم فيه الضحية ولدينا ثلاثة أيام مدة التنفيذ، إذا مرت دون تنفيذ العملية سوف تصبح المهمة مستحيلة، جلسنا في انتظار ضحيتنا، دار في ذهني سؤال كيف وصل بنا الحال هكذا وانجرفنا لتنفيذ شيء رغمًا عنا؟، وضعت فريد بك وشريكه في الحسبان وأقسمت أن أسقيهم من نفس كأس ضحيتي القادمة، عند عودتي من القاهرة لن أكون وحدي بل ستكون عودة جميع أفراد عصابتي القديمة، ستشهد الإسكندرية على فناء هذين الرجلين للأبد.

مر اليوم الأول والثاني بسلام، أرسل لنا فريد بك بأن الضحية اختصر الثلاثة أيام إلى يوم واحد فقط لانشغالاته الكثيرة، هذا صعب علينا التنفيذ، تغيرت الخطة من عملية تزوير ونصب لعملية سطو أو بمعنى آخر العملية تحولت من تخصص عصمت لتخصصي أنا شخصيًا.

في صباح اليوم الثالث (يوم التنفيذ) جاءت الضحية، معه حراسته، رأيت الحقيبة معهم، معلوماتي أنه قادم للقاء أحد الأشخاص للتفاوض على ما داخل هذه الحقيبة، هي عبارة عن أوراق تخص شريك فريد بك، لم يذكر في الخطة الطرف الثاني للضحية الذي ستفاوض معه.

وضعت إمكانية فشل الخطة ولم أضع إمكانية فشلنا، كسارق محترف رسمت أكثر من خطة للتنفيذ، كان السطو والسرقة داخل الفندق احتمالية نجاحها ضعيف إن فشلت هناك خطة التنكر في زي رجال الشرطة لتفتيشهم إثر بلاغ مقدم، بلاغ مزور بالطبع؛ رغم المجازفة لأن الفندق به بالفعل رجال شرطه يحرسونه، إن فشلت وضعت الخطة الكبرى، خارج الفندق بكيلو متر تقريبًا، اتفقنا مع سائق محند في جهاز الشرطة ليأتي بسيارته العهدة، أرسلنا له إذنًا مزورًا للخروج من الجراج للذهاب لإحضار ضابط في إجازة فورًا من ساعته وتاريخه، بعد مطاردة ضحيتنا والقبض عليه هو وحراسه وأخذ حقيبتهم وتقييدهم بأساور اشتريناها نتركهم في أي مكان مهجور، يكمل السائق تنفيذ الإذن ويحضر الضابط، عندما يحضر سيكتشف أن الإذن مزور، سيعود الضابط ليكمل أجازته.

عادةً لن يلجأ الضحية بتقديم بلاغ للشرطة، لكنه سوف يرد بطريقته الخاصة.

من جهتي أحكمت خططي، من جهة عصمت أحكم تزوير الأوراق والبطاقات المطلوبة في التنفيذ، جاء موعد أول خطة السطو والسرقة بإحداث ضجة وصخب في المكان يجعل كل من في الفندق ينتبه له وأنا سأقوم بالسرقة، لكن فوجئت بسيدة أظنني رأيتها من قبل ربما تكون إحدى فتياتي الليلية أو إحدى عملائي في القاهرة، لكني لم أتذكر، ما السبب الذي جعل كل جسدي يرتعش عندما رأيتها؟ _لا أدري_ لماذا أشعر بقلبي يكاد أن يتحول من مكانه؟ _لا أعـرف_ انشغلت بها، لم أعطِ إشارة بدء الصخب والفوضى في المكان بسبب ما أنا فيه؛ بسبب جمالها وهيبتها عندما مرت من أمامي لقسم الاستعلامات، أشار أحد الموظفين لها بالاستراحة، جلست في المقعد أمامي اعتقد أنها ستراني وتتعرف عليَّ لكن أخرجت من حقبتها كتابًا، ظلت تحدق فيه، جلست كمريضٍ يعاني من جرعة بنج زائدة جعلتني مسترخيًا، فاقدًا القدرة على الحركة، بدأ الارتباك من المنفذين للعملية وعلامات الاستفهام سيطرت عليهم، الوقت ينجرف، هناك ميعاد لخطط أخرى، لم أجد ما أفعله تجاههم ولا تجاه هذه السيدة، عيناها العسليتان لهما جاذبية خافتة من يراهما يدخل في حالة هدوء نسبي وصفاء مع النفس، شفتان ورديتان بهما لمعة تراها في العسل الأبيض تتمنى أن تلامسهما أو تتذوقهما من شدة اللمعان، كل شيء في جسمها له

بريق كالبرق في السماء من السهل جذب انتباهك نحوها، من الصعب الاقتراب منها، كانت ترتدي فستاناً لونه "بامبي" طويلاً ملصقاً بجسدها، يظهر مفاتنها، يدل على رقتها، رومنسيتها، يستند على جسمها بحملات عريضة أعلى كتفها بنفس اللون، سألت نفسي هل هذه سيدة مصر الأولى؟ لما لا.

أثناء إبحاري في عالمها الساحر سمعت موظف الاستقبال ينادي:

_السيدة وسمة علي بركات؟.

أغلقت الكتاب، نهضت من مكانها متجهة نحو المنادي فوقفت أمامها، نطق لساني اسمها لأجد عيني تحضن عينيها بل غرقت في عسلهما، لم أجد لنفسي أثرًا داخلها، كأني ذرة سكر ذابت، لم يبقَ لها وجود، لكني أشعر بدفئها وحنانها يغمرني، ما أجمل إحساسك حين تصبح غير موجود في عالم لا يعترف إلا بالوجود، ما أجمل الموت.

نظرت لي باستغراب:

_أنت تعرفني؟.

_أنتي مش فكراني؟ أنا عبد الرحمن اللي كان بيشيلك الشنطة ويوصلك كل يوم للمدرسة.

ارتبكت وسقط الكتاب من يدها وهي لم تدرِ، وأنا واقف أمامها تحت تأثير حالة الهيام، انتظر منها رصاصة الرحمة لحصان جامح، أصابه الكبر، يريد أن يستريح داخلها، يداوي كلماتها قلبه، تعوضه عن عمره الذي ضاع

في غيابها، هيا أطلقي هذه الرصاصة فأنا متعب من طول المشوار، فقدت صوابي وضاعت هويتي، أعيديني لحياتي الضالة التي وجدتها بعينيك وكفاكِ ارتباكًا وتلعثماً.

جاءت الرصاصة من الخلف بتكرار نداء اسمها فتلاشتني وابتعدت دون أن تنطق بشيء فانحنيت أرضًا التقط كتابها، ناديتها، أعطيت لها الكتاب، هزت رأسها بالامتنان واتجهت نحو المنادي ثم إلى المصعد، اتجهت أنا نحو المنادي:

_هي الست دي كانت بتسأل عن أيه ورايحة فين؟.

_معرفش يا بيه.

_آه.. طيب..

جاء عصمت غاضبًا جدًا، لأول مرة يعلو صوته في وجهي، اتهمني بالخيانة والنذالة، حملني ضياع حبيبته منه لأني أريد أن أتخلى عنه، حاولت تهدئته لكن لم أستطع، تركني وغادر الفندق بعدما أدرك أني خائن، لا يريد أن يكمل معي لأنني رسمت وخططت ومشارك في التنفيذ.

جلست مشرد الذهن ما بين فرحتي بلقاء حبيبتي ووعدي لعصمت، لم أشعر بالوقت المستغرق في جلوسي منفردًا أفكر لأقرر ما التالي، ما الواجب عليَّ فعله، من الممكن نصف ساعة أو أكثر من ساعة لكني حقًا لم أشعر بالوقت، ضاقت بي الدنيا، قررت الخروج من الفندق والرحيل إلى القاهرة حتى لو سيرًا على قدميَّ وفاءً بوعدي لعصمت.

أخبرت موظف الاستقبال بالفندق بانتهاء فترة الإقامة، إغلاق حساب فريد بك الذي كنا في ضيافته طوال تواجدنا بالفندق، تم كل شيء على ما يرام، قبل خروجي من باب الفندق بخطوات وجدت من ينادي باسمي التفت خلفي وجدتها وسمة قادمة نحوي مبتسمة، صافحتها، لمست يدي يديها الناعمتين الدافئتين، جلسنا في قاعة الاستقبال أمام بعضنا، ظلت تنظر لي، كانت كالشمس المتوهجة وأنا أحاول أن أقتبس منها بعض الضوء حتى أستطيع الظهور، بعد صمت مليء بأحاديث الروح قالت:

_زى مانت متغيرتش كتير.. جسمك الطويل العريض عامل فيها واد رياضي، شعرك الأسود الناعم اللي نازل على جبينك كأنه نهر للحب، عيونك السود، حاجباك كالمركب الشراعي، شفيفك ليهم طريقه بتخليني بتمناك متبطلش كلام لسه بتشيل شنبك؟، كل حاجة فيك جذابة، كأنك مش عايز تتغير.

_خفت لو غيرت حاجة فيا لما نتقابل متعرفنيش.

_اللي بينا يا عبده مش بالعين، لو اللي بينا كان بالعين مكناش دلوقتي قعدين مع بعض.

ما زالت خفيفة الظل لديها سرعة بديهة كما عرفتها في الماضي، حاولت أعرف كل شيء عن حياتها منذ أن تركت الحارة إلى الآن، رفضت أن تبوح لي بمنتهى اللباقة والإجادة في المراوغة، لمحت إن كل شيء له ميعاده لا يتأخر أو يستقدم والآن هي تريد أن تستمتع بهذه المفاجأة، أرادت أن

نتجول أمام شواطئ عروسة البحر الأبيض المتوسط، رفضت ذلك لأنني لا أريد أن يضيع الوقت وسرور في خطر بعدما ذهب لها عصمت خائب الرجاء بسببي، هذا سيسبب مضاعفات ممكن تقضي عليها.

استغربت جدًا لما أقول، كررت الأسامي مرة أخرى:

_سرور! عصمت! مين دول؟.

شرحت لها في عُجالة حكايتهم معي ولم أستطع أن أبلغها أني أصبحت رجل أعمال، فهمتها أن هناك من تبرع لها بالمال في القاهرة، أخرجت من حقيبتها خمسة جنيهات وأعطتها لي، وأردت أن تذهب حالًا إلى المستشفى لتراها، تنتظر معها حتى أعود من القاهرة فقلت لها الأمر لا يستدعي ذلك عليها تنتظرني، نذهب سويًا، أخذت منها عنوانها المؤقت في الإسكندرية لأنها مقيمة في القاهرة.

ودعتها دون إرادتي، لم أجد سيارة من أمام الفندق تسافر للقاهرة فذهبت إلى محطة الرمل، وجدت هناك سائق تاكسي وافق على السفر ذهابًا وإيابًا وقبل أن أستقل بها وجدت سيارة فريد بك أمامي، طلب مني الجلوس بجواره فاضطررت لقبول الدعوة بعد طرد رجاله لسائق التاكسي من الميدان والإسكندرية كلها.

جلست بجواره، سألني لمَ ضيعت هذه الفرصة، وصفنا بالصبيان، حدثته بلهجة عنيفة، ذكرته أنني لست لصًا بل رجل أعمال ولدي أضعاف ما يملك هو وشريكه، ومن الآن لا أريد أن أتعامل معهم، أردت أن أتركه

لأني على موعد للسفر الآن، نظر لي وكأنه لم يسمعني وأنا أحدثه بعنف وبابتسامة وهدوء قال:

_الراجل الكبير عايزك خمس دقايق، بعد كده امشي زي مأنت عايز.

هذا الشيء الوحيد الذي من الممكن أن يمنعني عن السفر.. فضولي لمعرفة شريكة أو الرجل الكبير كما قال الآن.

****

عجبي لسؤال له عدة إجابات، نتيجته واحدة أني ما زلت في ضيافة الدكتور رأفت، ربما هو سؤالك يا أمي الآن في لنـدن، لقد سافر، عبر بحور، بلاد، همس في أذني، استقر في عقلي، لماذا طالت غيبتي لهذه المدة؟، أي نعم أخذت من المستشفى التي أعمل بها شهرًا كاملًا إجازةً اضطرارية، مضى منها الآن ثلاثة أسابيع، سبب طلبي لشهر إجازة هو خوفي من عدم العثور على الصندوق أو هدم الفيلا وتغيير الأماكن والورثة، لحسن الحظ لم يمر يوم وأصبح الصندوق في يدي، حقًا إن مذكرات عبد الرحمن طويلة، مفصلة الأحداث بشكل ممل مما زاد عدد صفحاتها لدرجة أنني لا أريد أن أضيع وقتي في عدها، لكن ليست ضخامة عدد الصفحات السبب الوحيد، إصرار الدكتور رأفت على انتظاري لعائلته إحدى الأسباب، محاولاتي لاقتناص من جميلتي صورة لي معها كان سببًا مهمًا، تعددت الأسباب يا أمي ونسيت أهم الأسباب، هو أين عبد الرحمن وعصمت ووسمة هل هم على قيد الحياة أم فارقونا؟!، ربما هذه الأوراق التي بين يدي تجيب عن سؤالي، أتمنى ألا يخيب ظني، كم تمنيت ملاقاتهم لذلك أنا هنا، أحاول قراءة أكبر عدد ممكن في اليوم، كما تعلمي هناك معوقات من أهم أسبابها واجب الضيافة وفن الخصال الحميدة المصرية الذي لا تربطه أي علاقة بقواعد وفن الخصال الحميدة التي نعرفها.

في صباح اليوم التالي طبقنا البرنامج دون الخروج عن النص أو كما علمتني نرجس تطبيق العادات والتقاليد مع مراعاة عدم الخروج عن

الشريط؛ الشريط تقصد به القضبان الحديدية للقطار يا أمي، أحب أن أصرح لكِ عند عودتي سأسعى للقب جديد، أشعر بأني سأحصل عليه بلا شك، هو القيصر، عاشق ومعشوق الشرق، أصدقائي فسروا حبي لكِ وحبك لي هو شيء طبيعي بفعل ارتباطنا بصلة الدم أما حبي لنرجس وشعوري بحبها لي ما تفسيره؟، لذلك سأحصل على اللقب وأعلم جيدًا لا أحد منهم يستطيع جمع حب سيده وفتاة من الشرق مثلي، أنا بحُبك أنتِ ونرجس دائمًا متوجٌ وحاصد للألقاب يا أمي.

انتهينا من الإفطار، جذبني شعور غريب لم أنتبه له من قبل وهو العشق؛ هذه المشاعر مرحلة من مراحل الحب، أعتقد أنها المرحلة الثالثة بعد أول مرحلة، جذب الانتباه، المرحلة الثانية الإعجاب، ثم يأتي بعدهم العشق، مقارنتي ما بين الغرب والشرق وجدت للعشق رحيق مرتبط بالعاشق والمعشوق، بالمكان، الزمان، انتصر الغرب في المكان والزمان بكل جدارة وهذا يطول شرحه وباختصار الفرق لصالح الرقي والتحضر ما بين العالم الأول والثالث، أما بخصوص العاشق والمعشوق هنا انقلبت الطاولة لصالح الشرق لأنه مرتبط بالروح أكثر من الجسد وجدت اعتزازهم بماضيهم يشاركهم حاضرهم، ما زالوا يقرؤون الفاتحة، يتصدقون لأحد قد مات منذ زمن، نرجس لم ترَه من قبل وهو جدها، أما العشق الحقيقي هو الخالي من الشهوة الذي رأيته في نرجس، كم تمنيت أن أحضنها أو تشاركني غرفتي لكن لعشقها رائحة ذكية غير الرائحة المثيرة الشهوانية التي

كانت تثير غرائزي في الغرب، أحببتها كحبها لشوارع مدينتها أو كحبها لجدران متاحفهم ومعابدهم، حب لا ينتج منه أولاد بلا هوية بل نتج منه مشاعر جعلت لي هوية.

****

عُدنا لنفس الفندق الذي تركته منذ قليل وجدت نفسي اتخذت نفس طريق وسمة أثناء صعودها، كنت أخطو خطاها، أطابق مقاس قدمي على قدمها ربما لأني خائف وأريد أن أحتمي بها، أنال شرف ملامسة قدمي قدمها، بداخلي أشتعلُ صراعات ما بين الرجوع واستكمال الطريق، انتابني رعشة خفيفة لا أعلم مصدرها، رأيت طريقي أشبه بطريق المذنب للمقصلة، أصبح عقلي كآلة التصوير يدور بداخلي (نجاتيف) ذكرياتي، تدور الصور الفوتوغرافية ما بين السيئ والجيد_ الخير _الشر، سألت (كمرتي) كيف استطعتِ جمع كل المضادات في شريط واحد؟، كيف كانت تمر ذكرياتي قبل عيد ميلاد وسمة؛ أصابتني بلعنة الصورة الأولى وولعي برؤية صورتي الصادقة مع حبيبتي، بعدها سيطر بداخلي شعور أني أصبحت حياتي في أيدي مصور لا يجيد الوقت المناسب لالتقاط الصور.

توقف فريد بك أمام إحدى الغرف، أشار لي بالدخول، دخلت الغرفة المظلمة، أعلم أن صناعة الصور لا تحب الضوء ولأن الشياطين يعشقون الظلام أسرعت بوضع يدي على مكبس الضوء، لم أجد في الغرفة أحدًا، قبل مرور خمس دقائق دخل شخص من الباب الخلفي، ألقى التحية باسمي فاستدرت نحوه بفزع لأن صوته أعرفه، ما زالت أجراس خطره في أذني، توقف لساني عن رد التحية، اتسعت عيناي، تسمرت في مكاني وأكمل هو طريقه نحو مكتبة أزاح الكرسي الرئيس وجلس، سأل لمَ لم أجلس؟، لماذا

أنظر له هكذا؟.. لم أجد شيئًا أقوله، شعرت أنه يوم المفاجآت، ما زلت أنا محتفظًا بهيئتي إلى أن قال:

_أوعى تكون مش فاكرني؟ هزعل أوي منك.

تغير شكله تمامًا عن آخر مرة رأيته فيها، حقًا الثعبان يجيد تغيير جلده كلما أراد؛ شعره أصبح أبيض اللون، أطلق لحيته، شاربه، ازداد وسامة، جاوبته عن سؤاله:

_مقدرش أنساك أنت الأستاذ الكبير علي بركات الراجل اللي عطف عليا، خيره مغرقني.

ابتسمَ بدهاءٍ، وصفني بالذكي المراوغ منذ أول نظرة لي، عندما جاءت وسمة تشتكي من الذين اعترضوا طريقها وذكرت اسمي أدرك أني سأصل لما أريد، لم يمنعني أحد، من المفترض أن يقصيني من حياته وحياة ابنته، لكنه أحبني، رأى فيَّ طفولته، كلما حكت ابنته عني زاد قلقه، لكن لم يستطع أن يفعل شيئًا أمام القدر سوى أن يطاوعه ويمد لي يده.

استغربت من كلامه، سألته:

_ليه زاد قلقك كل ما بنتك جابت سيرتي؟.

_ده موضوع طويل هقوله بالتفصيل بس بعد ما تنقذني وترجعلي الشنطة.

سألته ما علاقته بالحقيبة، علمت منه أن بهـا أشياء تدينه، تدمر حياته ومصيره الإفلاس والسجن إذا ظهر ما بداخلها، كانت في خزانة مكتبة، سرقها أخلص مساعديه بمقابل مادي، أعطاها لأكبر أعدائه، تم التخلص

من مساعده هو وكل المقربين له، حاول الوصول لحل بالمفاوضات والمساومات لكنه لم يجد إلا هذا الحل؛ استفسرت عن طلبهم؟ أدركت أنه منطقي، أن ينظر للأضرار التي ستلاحقه ويدفع ثمنها بإرادته بدون أن يدخل السجن.

أبلغته أني للأسف لم تكن لي تجربه في هذه الأشياء أمثال السرقة والنصب والقتل، أنا الآن في أهم مهمة، مساعدة سرور وعودة حياتي التي افتقدها، حاول أن يترجاني، لا أتخلى عنه، ألح كثيرًا، صممت على رأيي فقال:

_لسه شايل مني عشان أخدت وسمة وبعدت عنك؟ مع إن ده كان في مصلحتك.

لم تؤثر فيَّ كلماته، استدرت لأرحل من كهفه فقال:

_هتتجوز وسمة من غير رضايا؟ هتتجوزها وأبوها في السجن؟.

_ده الحل الوحيد، لازم نبدأ حياتنا على نضافة.

تركته، خرجت من الكهف، كأني كتب لي عُمر جديد، لم أرَ ثعبانًا انفرد بفريسته وأفلتت منه كما أفلت أنا، لولا مساعدة وسمة لي لتغيرت الأحداث وأصبحت بين أنيابه أعاني من أضرار سمه في عروقي، حان الآن موعد العودة للقاهرة لترجع حياتي التي تمنيتها بعد طول تعب، مشقة، بكاء، حرقة.

وصلت بيتي وعملي لكن شعرت بأن هناك تغير لا أعرف مصدره، بيتي مغلق كما تركته، لم يفتح معي، حاولت مرارًا وتكرارًا، لم أستطع، فذهبت

إلى مقر رأس المجموعة الذي أدير منه أعمالي وأعمال أخواتي في المهنة، الغريب أني دخلت المقر لم أجد من يرحب بي إلى أن وصلت لمكتبي، دخلت وجدت صديقي وشريكي في هذه المجموعة والسبب في تقرب وسمة لي، جالسًا على مكتبي لم يقف ويتركه عندما رآني.

سألته عم يدور حولي، ما سر هذا التغيير لكل شيء تركته؟، هل هناك سبب أم رحلتي في الإسكندرية هي ما تسببت لي في هذا الارتباك؟، رجوته أن يجاوبني قبل أن أفقد عقلي، فكان رده:

_أنت قابلت الأستاذ علي بركات؟.

سؤاله ترك لدي ألف سؤال ولم أجب على سؤاله، وجدت نفسي أضع يدي حول رقبته لأخنقه:

_من غير كتر كلام قول اللي حصل بسرعة.

أشار برأسه بالموافقة، تركته، وبدأ الكلام:

_يا صاحبي الأستاذ علي بركات ده الأب لينا كلنا وأنت أولنا، بعد الصلح اللي حصل بينا ساعة الخناقة على بنته جمعنا تاني، أدانا فلوس كتير أوي زي ما كان بيديك بس أنت عشان توصل بنته وإحنا عشان نسرق وننهب الناس اللي مضيقاه، بعد موت أبوك هو اللي بعتني ليك، خلاني أحط إيدي في أيدك، هو كان بيختار الضحية ويسبك ترسم برحتك أزاي تسرقه، يعني مافيش حاجة من غيره بتم.

_وحياة أمك؟ طاب أزاي كان بيختار الحاجة اللي هنسرقه؟.

_في الليل بعد ما نسيبك بيجي واحد من طرفه، يقولنا كل حاجة، صدقني يا صاحبي الراجل ده هو السبب في الخير اللي إحنا فيه، أنت يدوب كنت بتنفيذ أفكاره وتعليماته بس بصراحة بمعلمه غيرنا أحنا البقر.

هكذا يفعل بنا الشيطان يزين لنا الخطيئة، يترك لنا التنفيذ وبعد مضي العمر وفوات الأوان يكشف عنا الستار لنجده بريئًا وأننا المذنبون، نشعر أن ما مضى من عمرنا ما كان إلا تسلية لشخص آخر، كنا دمية تحركها أصابع شريرة لتغرز فينا القيم الرديئة، يغطينا الوحل، أما هو أصابعه تصبح نظيفة، هو الأستاذ الكبير، نحن لصوص.

نظرت لصديقي وجدته صامتًا يستمع لما يدور في ذهني أو ربما صامت حتى لا يقطع حبل أفكاري تجنبًا غضبي أكثر مما أنا عليه؛ تمالكت أعصابي وقلت:

_أنا نويت أكفر عن ذنوبي وأبيع كل نصيبي.

_معليش يا عبد الرحمن ملكيش نصيب عشان تبيعه.

_أزاي؟.

_جات أمبارح أوامر من فوق بالكلام ده ومعانا إثبات بكده.

_ده ورق مزور وبسهولة هيتكشف فى النيابة.

_حبلهم طويلة عقبال ما تكشفه هتكون سرور ماتت وهي دي الرسالة اللي لازم تعرفها.

_مش هسألك من فين عرفت سرور، لكن بقولك وبعدين؟ الحل أيه؟.

أعطاني مبلغًا تجاوز العشرين جنيهًا لسداد ديوني وعودتي للإسكندرية، أبلغني أن الأفعى في انتظاري، أخذتهم وأنا مكسور العين، هزيل الإرادة، أومأت برأسي موافقًا، استدرت لأعود من حيث أتيت، قبل خروجي نادى صديقي:

_عبد الرحمن أنت ليك عندنا كتير، لازم تعرف أحنا معاك، مشكلتك مع الراجل الكبير أنا واثق أنك كدها، هتعرف تحلها.

لم أجد ما أقوله لقد انتهى وقت الكلام، هذا وقت سرور، ربما كان باستطاعتي أن أظل في القاهرة، أبحث عمن يساعدني بالمال، لكن لا أعرف لأي مدى أصابتني لدغة الأفعى، شيء بداخلي حثني لكسب المزيد من الوقت لإنقاذ سرور.

عُدت مسرعًا في نفس اليوم لفندق (سيسيل)، كان فريد بك في انتظاري رأيت في عينيه شماتة المنتصر بالمهزوم، لأن الشماتة ليست من شيم الرجال فلم ألمه، شعرت حينها أنه على علم بما حدث لي بل هو مشارك في الأحداث التي مررت بها، بدون تحية أو كلام ذهبت إليه، التزمت الصمت ليتكلم:

_الباشا مستنيك فوق.

أشار لي باتباعه، اتبعته حتى وصلت لنفس الغرفة التي أظن أن سيده جعلها كهفًا له، فتح الباب، تركني أدخل وحدي.

يتغذى الثعبان بطريقتين الأولى عصر فريسته إلى أن يتوقف نبض قلبها، الثانية بحقن أو لدغ فريسته مباشرةً وسريعًا، مما يصيبها بالشلل بعد

لحظات من قصف الخلايا الحيوية به، بهاتين الطريقتين يسهل على الثعبان تناول ضحاياه، بالفعل لدغني الأستاذ علي بركات في الماضي أصاب قلبي بسم يسمى وسمة، قتل في لحظة جميع الخلايا الحيوية لدي.. الآن التف حولي تمكن من عصري وتجريدي من أي مصدر قوة لدي، توقف نبض قلبي النابع من أصدقائي – سلطاني-نفوذي-جعلني لا أملك حتى المال الذي أتيت به إليه، ثعبان عجوز لكنه محترف متمكن من أسلحته، ما يشغل بالي متى أنتهي منه؟.

ما يصبرني أنه لم يخدعني ورأيته بصورته الطبيعية دون غيري، ربما نقاء القلب وصفائه جعلني أخترق الستار، أكشف وجهه القذر المخفي في الوجه الحسن ومظهره الجذاب، كنت عين أبي التي افتقدها، حين مات لم أعد أرى شيئًا، أثناء الصراع ما بين الماضي والحاضر ولوم نفسي على ثعبان رأيته، لم أقتله، ترحمت على قلب صافٍ نقي من بعده شقيت وأصابني الوهن.

دخل الأشيب الماكر قطع حبل وريدي بيني وبين أبى فترحمت على أبي مـرة أخرى ولم أرد التحية، أنتظر لمدة قليلة، ثم تفهم أني لم أفعلها، بكل هدوء ودم بارد قال:

_هاا هتعمل أيه؟.

_هساعد سرور لو كان التمن حياتي، لكن عندي سؤالين لازم ترد عليهم الأول.

هز رأسه، أعطاني إيحاء بشفتيه كأنه يتوقعهم، مد يده مشيرًا أن ألقيهما:

_السؤال الأول هو أنا ليه شايفك أفعى ودي خلاص عرفت إجابتها.

ابتسم واتكأ بظهره للخلف على الكرسي متخذًا وضع الأفعى في الهجوم وهز رأسه لأكمل:

_السؤال التاني ليه أنا؟ أزاي وصلتني للدرجة دي من الإجرام؟.

عقد شفتيه، وقف في مكانه، ظل يفكر، كأنه يرتب كلماته – حروفه- ثم تجول حولي قائلًا:

_الدايرة يا عبد الرحمن مش حولينا وبس دي كمان جوانا وفينا.

نظر لي ليتأكد أني فهمت ما يقول أم لا، نظرت له من أعلى لأسفل حتى يدرك أني غير مستعد لفك طلاسمه وألغازه أو لخوض لعبة أخرى من ألاعيبه القذرة، فرفع يده اليمنى مستدركًا عدم فهمي له وعدم الانصياع لحوار ربما يكون مفخخ وأكمل حديثه:

_الأرض دائرية.. الكون بمجراته وكواكبه بيدورو في دوايرو.. الدنيا حولينا بتدور زي عقارب الساعة، حتى جواك هتلاقي الدورة الدموية، بص حوليك هتلاقي اللي مش شبه أبوه بيبقى شبه أمه أو جده؛ الدايرة دليل على التكرار.. تكرار الأحداث.. الوشوش.. الأشخاص.. الناس أغبياء يا عبد الرحمن بيمشوا في الأرض زي البقر اللي مغميين عينيهم في الساقية بيعيشوا

اللحظة اللي هما فيها وبس، بيخافوا يعرفوا أو يفهموا الحقيقة لأحسن النور يدخل حياتهم وعينيهم متعرفش النوم.

قاطعت كلامه السام:

_وأنا مالي بالكلام الفارغ ده؟.

ضحك ضحكته التي تشبه فحيح الثعابين:

_كان زمانك زيهم، أنا اخترتك عشان تفهم وتشيل الرباط اللي مغمي عينيك.

_رباط أيه؟ أنا سرقت.. عشت حرامي، نسيت اللي حفظهونى أبويا، أبويا اللي سابني أرض خصبة بتطارح خير، بقيت أرض بور مفيهاش غير الشر والخراب.

جاء من خلفي، أمسك كتفي وهمس في أذني كشياطين:

_أنا عارف أنك مش هترتاح غير لو عرفت الحقيقة كاملة، أنا هاريحك لكن لازم تعرف حكايتي، ليه عملت معاك كده عشان لما تحكم عليا تبقى عادل.

استدار من خلفي، جلس على الكرسي الرئيس لمكتبه، سرح قليلًا ثم بدأ في سرد حكايته...

****

طلبت لي كوباً من الحليب الساخن ولها كوباً قهوة فرنسية، جلست أمامي في التراس بينما والداها يمارسان رياضة السير حول الحديقة، سألتني عن سر أرقّ وشعوري بالاختناق الظاهر على ملامحي، يبدو أن والدها حكى جزءًا من سهرتنا بالأمس وعلى يقين أنه لم يحكِ باقي الأجزاء، قررت لم أفشِ سره كما هو أفشى سري، حاولت مراوغتها أو بالأصح الرد بدبلوماسية حتى انتهى من حصارها لي، لا أريد أن أشاركها مرضي بالمعتقدات والعادات والتقاليد التي تشغل بالي الآن لكني أدرك لا أحد ينجو من حصارها إلا الموتى، فبدأت معها في سرد مشكلتي منذ طفولتي ومقارنتي الدائمة بعادات وتقاليد مجتمع بأكمله، وعادات وتقاليد منزل به ثلاثة أفراد، عقيدة يؤيدها منزل وحيد بينما يعارضها ويرفضها مجتمع كامل، وأنا في الوسط حائر أي طريق أسلك؟، لم أستطع أن أتمسك بديني كما أرادت أمي، ولم أستطع التخلي عن ديني والتعايش بأفكار مجتمعي خوفًا من غضب أمي المريضة، حياتي عبارة عن حرب بلا خيول ودروع وسيوف، بلا طائرات وآليات رشاشه وجنود، عشت طوال عمري بشخصيتين إحداهما داخل المنزل والأخرى خارجه، أختنق من القيود في المنزل وأتألم من مخالفاتي للقيود خارج المنزل، عقيدتي تقيد الحب وأفعاله، معظم أفعالنا اليومية في مجتمعي بلا قيود، تنادي بالحرية، لكن عندما طبقت الحرية التي سعوا لها اعترف لي صديقي أن أمه لم تعرف من والده الحقيقي، في حفلة تعددت علاقاتها ولم تعلم ماذا حدث ليلتها، صديق آخر اعترف لي

أن أمه انفصلت عن والده قبل الارتباط منه وانتهت علاقتها به للأبد، لكي نداري سوءاتنا ترفعنا عن الأصول والجذور، رفعنا راية الاعتماد على النفس أما الاهتمام بالأسماء والألقاب من علامات التخلف والجهل، جعلناها مجرد مظاهر، لذلك الأصول والجذور هما الشيء الذي يؤرقني الآن، عندما صرحت أمي بأهمية البحث عن الأصول سخرت منها، عندما وصفتهم بالأبطال اعتقدت أنها تجذب انتباهي فقط، أتيت إلى هنا لإرضائها والعودة بالصندوق الخشبي وتحقيق أمانيها، لكن منذ أول لحظة في شياخة عرب يسار "حي الخليفة" التي نشأ بها عبد الرحمن صاحب هذه الفيلا السابق وجدت تلاصق الأهل ببعضهم جعل الجدران يشع الدفء منها لامس جلدي ودمعت عيناي، دخلت بيتكم، علمت أنكم في زيارة أقاربكم ومدى ترابطكم بهم، لم أستغرب فما زال ملمسي يغمره دفء الحارة، عندما أخذتني حروف عبد الرحمن لعالمه رأيت حبًا غير الحب الذي أعرفه، وجدت معنى آخر للصداقة فهناك من يريد أن يضحى بكل ماله، هناك من يريد أن يضحى بحياته، حقًا ضلوا في بادئ الأمر لكن جذورهم الطيبة أعادتهم للطريق الصحيح، تاب من أذنب وأراد أن يتخلص من ذنوبه ويثبت أنه أخلص في توبته لكن ما زال الشيطان يصدهم، الفرق الحقيقي في مـن لـديه عقيدة سليمة ومن ليس لديه عقيدة هو إدراك الصواب، حتى إن ضلّ عقيدته ستصبح له مصباحًا سيراه يومًا في ظلمته أما من ليس له

عقيدة لا يمتلك المصباح، لذلك عاد عبد الرحمن وصديقه للطريق الصحيح مرة أخرى، مجتمعي ما زال لم يدرك الصواب ولا يعلم أي طريق يؤدي له.

الآن لا أريد العودة لهذا المجتمع إلا بعد معرفة جذوري وأعلم لا أحد سيرشدني عليه إلا هذه المذكرات، لذلك أنا مستمر في قراءتها حتى أصل إليهم وأصل بهم للطريق الصحيح.

استمعت لي بدون أن تقاطعني، بابتسامة رقيقة على شفتيها مدلولها الإعجاب، قالت:

_حتى إن كان هذا الطريق لا يليق بالمجتمع الذي أنت قادم منه؟.

_فقدنا القدوة، البطل الحقيقي، فاخترعنا بأنفسنا أبطالنا الخارقين للطبيعة القادمين من الكواكب الأخرى لنصبح مثلكم، لذلك لا يهمني هذا المجتمع، ما يهمني هو أن أجد نفسي، أعود لأمي بطلاً حقيقيًا تحكي عنه مثلما تحكي هي عنهم.

****

الفصل السادس

المنصورة (**1900**: **1968**):

هل عانيت من الاختلاف الطبقي؟ هل رأيت معاملة العبد لسيده سوى في القصص والأفلام القديمة؟.

أنا رأيتها بل عشتها، كنت جزءًا من هذه القصة عندما كان أبى غفيرًا في دوار عمدة (كفر البدماص)، أبى رجل على حق جميعنا نخشاه من البيت، الجيران، المناطق المحيطة بنا، عندما يهل في أي مكان يحل فيه الخوف والارتباك، رجل متكامل طول، عرض، شارب يوحي إليك مدى قسوة قلبه، قوة نظرات عينيه عندما ينظر إليك يثير عندك الشعور بالريبة، يسكن في قلبك الرعب دون استئذان، كل هذه المواصفات رسمت بداخلي أعظم صورة لأبي، كانت الصورة تكبر، تضخم، كلما رأيت الناس يهابونه، إلا أن اصطحبني لمكان عمله في دوار العمدة، هناك الصورة اهتزت من مكانها، سقطت بداخلي في أعتم مكان، تحطمت، أكتشف أن صورته التي رسمتها غير صحيحة عندما رأيته يخدم الأخ الأوسط للعمدة متذللًا، أما العمدة رجل طيب، حكمته في صمته، هدوئه، لديه أخوان، بعد وفاة زوجته زهد في الحياة، كرس كل وقته لابنته الوحيدة نجاة.

فكر العمدة في ترك منصبه، منعه إخوته لعدة أسباب منها عدم استطاعته التنازل لهم لعدم تجاوز إخوته سن الأربعين، السبب الآخر

لتستره عليهم في الخلافات والنزاعات مع أهالي القرية التي تنتهي قبل أن تصل بشكل رسمي للبندر، رغم ذلك علم الحكمدار وأبلغ العمدة حينها إن الحكومة لديها عمدة آخر حال وصول أي شكوى بشكل رسمي ضد أفراد عائلته؛ العمدة الجديد سيكون من عائلة السخاوي الثرية، طلب منه إن لم يستطع السيطرة على إخوانه أن يتنازل بإرادته حفاظًا على تاريخه المشرف أفضل من حبس أحد عائلته وسلبه من منصبه.

أجبره إخوته وبالأخص الأوسط على التمسك بالكرسي من أجلهم، أصبح العمدة مجرد صورة وأخوته يضعـونها أينما يريدون، أبي أدرك ذلك، أصبح عبارة عن (عروس مريونيت) في أياديهم، غضبت، كرهت حياتي، لعنت الصورة التي رسمتها بروحي ودمي أعلى يسار صدري لأبي.

حبي لنجاة كان المسكن لآلامي وجروحي كنا مقاربين في العمر، الفكر، الحب، كانت حياتي وكنت روحها، كانت عيني وكنت قلبها، لعبنا، تسامرنا، ضحكنا، بكينا سويًا، لم نكبر في أحضان بعض بل في عروق بعض، بُحب نجاة لي أحبني والدها، أصر على تعليمي مثلها حتى أشجعها لمراجعة المواد الدراسية وأرعاها في الذهاب والإياب وداخل المدرسة؛ من حسن حظي لا يوجد في عائلتها أبناء في عمرها.

تعلمنا في الكُتاب القراءة، الكتابة، حفظ القرآن، إلى أن دخلنا المدارس التجهيزية (الثانوية)، كنا كالعصافير لا نحمل همًا لا نفكر في الغد، الحب يحمينا من كل سوء إلا أن أصاب عشنا رصاصة أبي التي اخترقت قلب كبير

عائلة السخاوي المرشح لمنصب العمدة الجديد ويهدد مصير العمدة الحالي الذي أصابه الزهد، سجن أبي وظن أن العمدة سيقف بجواره عندما يعلم أنّ أخاه الأوسط هو المحرض على القتل، غضب العمدة ولم يشفع ليبرئ أبي بعد أن أنكر أخوه تحريضه، طلبت من أبي الاعتراف أمام القاضي بمن حرضه، لكنه التزم الصمت وفضل الإعدام.

أبي كما غير نظرتي له، كسر بداخلي أشياء وهو يخدم أخ العمدة متذللًا جعل أيضًا تنافر بيني وبين حبيبتي لأنهم وضعوا حبل المشنقة برقبته، حاولت نجاة أن تلهيني عن فكرة الانتقام ولم تستطع فهي لا تعلم أن النصيحة لا تجوز للأموات، النصيحة لا تجوز لشخص جميع الأشياء من حوله كانت كاذبة، جعلته بلا قلب أو عقل، قتلت بداخلة كل شيء جميل بتغير الصور، بموت والدي تغيرت ومت معه، أعلم أن هذا ضعف، طلبت منها السماح.

خطط ورسمت للانتقام من أخ العمدة الذي حرض أبي على القتل، في اليوم الموعود أخذت خنجري، وقفت أمامه والدم يغلي بداخلي، لم أعد أرى سوى دمائه وهو يسيل منه، فوجدته بارد الدم واثق أني لم أفعل، ظننته مخطئًا، ضعيف الفهم، لكن خاب ظني عندما سقط مني الخنجر أمام عينيه الحادتين ومع ابتسامته قال:

_بركات أبوك قتل بمزاجه، بكامل إرادته لما خيرته ما بين أنك تستمر في التعليم وبين منصب العمدة يروح منينا؛ لو منصب العمدة راح منينا أنت هتتحرم من التعليم وأبوك هيبقى مجرد بواب عند العمدة الجديد.

ابتسم بنظرة شيطانية وغمز لي بطرف عينيه، أكمل:

_وتتحرم من حبيبة القلب.

_نجاة كانت أختي ومن بعد أبويا مبقاش بينا حاجة.

ضحك بصوت عالٍ وصفق بيديه كأنه يشاهد فصلًا من عرض مسرحي، توقف فجأة، رشق عينيه في عيني قائلًا:

_أنا ماجبتش سيرة نجاة، الكدب يا ابن الغفير جزء أصيل في الإنسان ميقدرش يستغنى عنه.

_أنا كداب عشان إنسان؛ طاب أنت إيه؟.

ضحك مرة أخرى، بضحكته هذه المرة شعرت أنها إجابة بالرفض على إجابة سؤالي، أكمل:

_يرضيك دم أبوك يروح هدر؟ يعني لا تتجوز بنت العمدة ولا تاخد شهادة؟.

_!!!

_أنت عايز تقتلني وتحصل أبوك أو تهج وتعيش طول عمرك غريب وهربان!.

وسواسه في أذني لا أستطيع الهروب منها، وضع أمامي كل الطرق، زين لي طريقًا واحدًا، أوهمني أن لدي الاختيار، وجدت نفسي أجلس أمامه كالخادم المنهك المتذلل طالب رضا سيده، هنا تذكرت أبي، عذرته عندما فعلها من قبل وقلت:

_وإيه العمل أنا مش عارف أعمل أي حاجة.

_متعملش حاجة، كمل في اللي أنت فيه وفي الوقت المناسب هتلاقيني بقولك تعمل أيه.

حقًا عودت كما أمرني لكن بجسدي فقط لأن عقلي وقلبي سقطا مني عندما انحنيت أمامه ودهسهم بقدميه، منذ هذه اللحظة أصبحت مثله أمشي مشيته أقف وقفته أضحك ضحكته، أصبحت متفهمًا أكثر للحياة.

تغيرت شخصيتي تمامًا عم كانت في السابق، جميع المحيطين بي أشادوا بإعجابهم لهذا التغير إلا نجاة بريقي الزائف لم يؤثر فيها ربما لأن قشرة الذهب ليس لها ثمن أو لأنها تعلم كثرة الأضواء حول الساحر وراءها خدعة متقنة، ظلت تخشاني، تبتعد عني كهروب طائر البرية من صياده بحثًا عن مكان يحميه، الأدهى أنها لم تجد سوى حضنه يؤويها، نفس الحضن الذي تهرب منه تلجأ له، أكثر شيء تحبه أصبحت تكرهه، هي الوحيدة التي رأت بذور الشر تنبت وتترعرع في قلبي، عندما لازمت عمها رمز الشر لديها، وجدتني أمامه طائعًا متذللًا كما وصفت أبي لها من قبل، فاهتزت صورتي التي التقطتها لي في قلبها، سقط، تحطمت، أصبحت مجرد صورة

استطاعت أن تخدعها، ذات مرة صرحت بذلك، قالت أنها تخلصت من جميع صوري الكاذبة لأن المصور الذي التقطها كان مبتدئاً، لا يهتم بالتقاط صور حقيقية وصادقة.

انتهيت من دراستي، تخرجت في مدرسة الحقوق كما أراد سيدي بعد انفصالها من مدرسة الإدارة والألسن، بعد ذلك سميت بكلية الحقوق، أما نجاة اتخذت طريقًا بعيدًا عني بعد حصولها على شهادة البكالوريا عندما تجاوزت المرحلة الثانية من الثانوية العامة، بعدها استقرت بالمنزل، كنت السبب لشعورها بالخطر على والدها، فزادت الاغتيالات، السرقة، حرق الأراضي، والفاعل مجهول، تعلمت من خطأ والدي الجاهل، أتقنت عملي، سخرت ما تعلمته في الانتهاء من كل خصوم سيدي وقيدت ضد مجهول، حقًا دراستي في مدرسة الحقوق جعلتني لم أترك ورائي أي دليل لكن نظراتي لحبيبتي كانت تفضحني بل أحيانًا نظراتها كشفت أفعالي قبل صدورها، وفي نشوة فرحي بالتخرج أرسل لي سيدي، لبيت نداءه، وقفت أمامه طائعًا، ظل صامتًا، كان يدرك أن داخلي صراعات وأسئلة بلا أجوبة عن دوري في المرحلة القادمة وأنا في هذا المركز المرموق، لماذا أرسل لي في هذا التوقيت؟، وهو ما زال هادئًا ينظر لي، كأنه ينتظر مني ردًا على سؤال لم يطرحه، التزمت الصمت في حضرته، عندما تأكد من اشتعال الصراعات لذروتها تحدث:

_مبروك التخرج يا علي يا بركات، ها عارف هتعمل أيه دلوقتي؟.

_المفروض أتجوز نجاة بس هي مش طيقاني، بقيت بتكرهني، هي متعرفش أني سمعت كلامك، بقيت تحت طوعك عشنها، لكن خسرتها، أنت الوحيد اللي تقدر ترجعهالي.

ضحك وأطال في ضحكته وهو جالس أمامي واضعًا إحدى ساقيه على الأخرى وأنا ما زلت واقفًا، لا أدري لماذا يضحك هكذا، لماذا لم يأمرني بالجلوس، انتظرت رده الذي جاءني كالصاعقة:

_نجاة خلاص مبقيتش ليك، لو حاولت تطلبها رسمي أنت عارف أن العمدة هيسمع كلامها، هيطردك، ها عرفت الحل أيه؟.

_موت العمدة.

_خلاص خلصت من كل أعدائي، كرسي العمدة في انتظاري، أنت الأفوكاتو والنائب بتاعي، طبيعي أجوزك أغلى ما عندي، بنت المرحوم أخويا.

_مافيش طريقه تاني؟.

_يوم ما تحب تتجوزها أديك عرفت الطريقة، سلام.

ربما الشيطان كان يفكر في شيء أبعد من ذلك فإذا تزوجت بنجاة عن حب سيأتي يوم وأصبح العمدة فاستطاع أن يغلق هذا الباب بالزج بي في طريق يعلم جيدًا كرهه وبغضه لنجاة ووالدها، سألت حينها ربي إلى أي مدى سيأخذني الشر؟.

****

_إذا حاولت أن تصبح بطلًا في حياة أي شخص ستفشل حتمًا لو كان يشغل حياته بطل حقيقي من قبل.

ردها كان قاسيًا، مفاجئًا لي لكن لنرجس مكان في قلبي يصعب أن تهتز صورتها فيه، فسألتها:

_تقصدين أن شخصية البطل مثل الحب الأول يصعب نسيانه؟ أم تقصدين البطل هو الذي يفعل شيئًا مستحيلًا على غيره أن يفعله؟.

_إذا كان غضبك أنّ لدى أمك بطل حقيقي مثل والدك فهي تحبك بلا شك مثلما تحب والدك، الحب الأول وحبك امتزج، لم تعد تستطيع التفرقة بينهم لأن الحب الأول أثمر هذا الحب (ثم أشارت لي).

كنت لا أفهمها، تفهمت عدم فهمي فهزت رأسها وقالت:

_للتوضيح.. لديك برتقالة تذوقتها، أعجبتك، أخذت بذورها، زرعتها، أثمرت، هل ستفرق بين البرتقالة الأصلية والبرتقالة التي بين يديك؟ بالطبع لا، ربما تشعر إن البرتقالة التي بين يديك الآن هي الأفضل، خاصة إذا مضى عمر طويل على حبك للبرتقالة الأصلية.

_إذًا تقصدين أنه من المستحيل تغيير بطل لدى محبيه إلا إذا فعلت شيئًا يمحو ما فعله.

_أقصد ذلك، للعلم إن لقب البطل صعب الحصول عليه، عليك ألا تسعى إليه، اتركه إن كنت حقًا تستحقه ستناله دونما تبحث عنه.

حاولت تغيير الموضوع أو تغيير موقفي لأني بدأت أشعر أن هناك بوادر عاصفة تهب نحوي، انتهزت جذب انتباهها لي وأدركت أن لو سألتها لم تستطيع الهروب فقلت:

_في مدتي القصيرة معكم وجدت عددًا قليلًا من صديقاتك يأتين هنا، لم أرَ فيهن أي صديق هل رؤيتي صحيحة أم خاطئة؟.

_صديق دراسي أم عاطفي؟.

_لم أقصد صديقًا دراسيًا.

تنهدت أمامي حتى شعرت بدفء في جسدي من منبت رأسي حتى أنامل قدمي، نظرت نحو آخر نخلة عالية، كأنها تراقبها قبل الزوال، بعد فترة صمت قليلة وهي ما زالت تراقب هذه النخلة ردت بصوت حنون:

_أنا لا أتوقف عن الحب أشعر كثيرًا أنني ولِدت لأحب وسبب مجيئي هو الحب، لا أتواجد في مكان أو أضع يدي على طرف كرسي أو أعلى منضدة إلا بعد شعوري بحبها، لأني لست ملاكًا انقسم قلبي لنصفين، أصبح له وجهان، سميتهما الحب الروحاني والحب الحيواني فسيطر الروح على الجسد، علمت أن تراب الأرض يحتوي الجسد أما السماء تسكنه الأرواح فسما قلبي وعلا شأنه، رأيت القلوب كما هي آتية بدون ألوان تغطيها أو جلود تكسوها ابتعد عني القبيح، تقاربت من الجميل حتى أتزين بجماله فأصبحت جميلة، الحب هو أعلى درجات الإخلاص، هو سبيلنا لإرضاء خالقنا عنا، لذلك

واجهت الحب بكل معانيه وطوائفه وأمانيه، ما كان لرد حبي للجميع غير الحب من الجميع لي.

من كلامها أمسكت بطرف الخيط المؤدي لغرضي، عندما نحب بأرواحنا نسمو ونعلو لمكان لا تدركه الأبصار أما عندما نحب بأجسادنا نتدنى للأرض ونلمس التراب، لكن هي بشر مثلنا رأيتها تأكل، تشرب، تغضب، تفرح، ومنذ قليل قالت لست ملاكًا فكيف لجسدها لم يشعر بالحب، كيف لا تلبي رغباته؟ فأخرجت ما في جعبتي لتخرج هي كل ما تخفيه، قلت:

_معنى ذلك أن جسدك لا يشعر بالحب، لا يوجد لحبه راغبات؟.

ابتسمت ورشقت عينيها بعيني قائلة:

_عندما أجد الشخص الذي لو أفتقده لم أجد مثله سأسعى جاهدة ليستمر، ليمتزج نسله ونسلي في هذه الحياة، ذلك الشخص لم يكن كباقي الأشخاص، لابد أن يكون بطلًا لحكايتي.

_هل صادفتيه؟.

هزت رأسها بالرفض، دخلت علينا الدكتورة أمنية وزوجها بابتسامتها ذات المغزى غير المريح.

****

لم يطل التفكير في قتل العمدة كثيرًا، رغم أنه مات غريقًا في ترعة القرية وهو قادم من تفقد أحوال قريته إلا الشكوك حولي من نجاة لم أنجُ منها، أثبت الطبيب الشرعي أن السيارة فقدت توازنها بانقطاع الفرامل وتعثر الطريق السبب الرئيس في انحرافها إلى الترعة، لم توجد أي شبهة جنائية.

جلس العمدة الجديد على الكرسي بجداره واستحقاق بعد عدة أعوام من الرسم والتخطيط يصعب على أي مهندسٍ رسمه بهذه الدقة، أو جراح في بتر جزءًا من جسمه كان يؤلمه، أما أنا أخذت مكافأتي كما وعدني، تزوجتها رغمًا عنها كمحتل أرضًا غير أرضه، لا يحق له الاستحواذ عليها.

لم تجد نجاة من يساندها من السقوط المدوي، الحتمي، بعد كسر جناحيها وهذا سبب الحزن الذي لازمها طوال حياتهـا، استطاعت إخفاءها بداخلها حتى تستمر الحياة، لم تستطع محوه من عيونها فاستقر في عدساتها، جفونها، إن أغلقت عينيها ستره الحزن، إن فتحتهم ستروي لك كل شيء دون أن تنطق بشيء.

حاولت أن أثبت لها أنني لا أستحق كل هذا الكُره محاولًا إخراجها من حالة الاكتئاب التي سيطرت عليها حتى بعد إنجاب ابنتي الوحيدة وسمة بسنوات، اقترحت على سيدي السفر والعيش بعيدًا عن صورة وروح والدها الذي تراه في كل مكان، وافق، تمت إجراءات النقل، أرسل معنا سيارته الخاصة التي دخلنا بها حارتكم في اليوم الشهير، الأرض التي جمعتنا كنت

أعتقدها أرض ميعادك فكانت أرض ميعادي رأيت فيك نفسي، أنت الصعلوك الذي أراد أن يلمس القمر ويضيء مثل النجوم، كم كانت وسمة تشبه أمها في صغرها، كم كنت تشبهني في صباي، علمت نهايتك عندما شاهدت بداياتك، دافعت عن وسمة بدافع الخير، تملك قلبها حبك فأبهرتها، تعاونت مع الذين آذوا ابنتي لأنني أشبههم، عطفت عليك لأنك تشبهني، تعلق قلب وسمة بك دون أن تدري، كانت لا تتوقف في الحكي عنك، تمدح في من أسر قلبها، قررت أن أنمي قدراتك، لعلمي ظروف والدك امتنعت عن إرسالك للمدارس، كنت ألقنك كل ما أريد على لسان وسمة، أخذت أيام وليالي أحكي لها، أعلمها وأعلم جيدًا كل ما تفهمه مني ستعلمه لك، في الظاهر كلامها، في الحقيقة كلامي؛ ما أفسد خطتي ذلك المصور الغبي عندما التقط لك الصورة المفاجئة مع وسمة، لا أعلم أنها ستتعلق بها هكذا، وتتعلق بك باقي عمرها، خطتي هي تعليمك، إدراكك لما يدور حولك، إخراجك من الحارة الضيقة للعالم الفسيح المهول، كان هدفي ألا تحيا وتموت بين أربع جدران وحارة مهمشة مثل الكثير من أهلها، مشكلتي أني اعتبرتك أنا، سلاحي معك كان الحب، عندما أفسدت بفعل الإطار الورقي الذي سجل تلك اللحظة الملعونة، زاد ارتباطكما، جن جنوني كنت أدرك أنه سيأتي يوم ونبتعد عنك ووسمة ما زالت صغيرة ستنساك إنما الآن بعد هذه الصورة كيف تنساك؟، كيف أمحو ماضيًا ما زال يتجدد كلما نظرت في تلك الصورة؟، حاولت حرقها أو تمزيقها، خوفي على ابنتي

منعني وهي كل ليلة لا تنام إلا في حضنها، امتلأت حياتي بالصور الكاذبة، لم أجد أصدق من هذه الصورة رغم أنها غير مقصودة، لكنها كانت ولا زالت لا تكذب، هنا أقسمت أن أملأ حياتك بالأكاذيب حتى إن كان الثمن ابنتي الوحيدة هي الأخرى سيملأ حياتها بهذه الأكاذيب.

ذهبت لسيدي حتى يفعل شيئًا لإخراجي من شبح كاد أن يقتلني، تمكنت من إيجاد السكن، المدرسة المناسبة لوسمة، تبقي لي أنت، أرسلت أحد صبيان الحارة لوالدك، أخبره أنك تعرضت لحادث مؤلم في أول الحارة، سار يهرول، كأنه عاد له بصره، عندما وصل أول الحارة كنت في انتظاره بسيارة العمدة، وقت الظهيرة لم يكن هناك أحد لينقذه أو يراني، تم اصطدامه، ارتجف قلبي لثوانٍ لكن مبرري كان أقوى، لابد من كسر الحاجز الذي يمنعك من دخول عالمي، رمز الإيمان والخير لابد أن يموت مقتولًا لتعلم أنه لا يستطيع حماية نفسه وتجد في الشر السبيل لتحمي نفسك.

في يوم الرحيل حاولت أن أتلاشاك، ابتعد عنك تركتك تذهب لملاقاة وسمة غير الموجودة هناك، أسرعت في كل شيء من نقل الأثاث، جمع أغراضنا، لكن ساعة ونصف كانت غير كافية، تلاقينا، رأيتك وأنت لا تراني، كانت وسمة تمنعك عني وهي لا تفكر سوى في قلبها الذي تركته وراءها.

لم أتركك للحظة، أرسلت لمالك الكُتاب الذي تعمل لديه أموالًا لهدمه وضمه للمسجد حتى لا تجد لك مصدرًا للرزق سوى من صديقك الجديد عدو الأمس، كنت سعيدًا بما تفعله من تخطيط وتنفيذ، دوري هو إرشادك للضحية، والباقي أنت تعلمه أكثر مني.

****

اتخذ الدكتور أحد الأركان البعيدة، أمسك بكتاب متهالك، ظل ينظر فيه، أما هي جلست بجوار بنتها، سألت عن صحتي، تمنت لي دوام السعادة والعافية، شكرتها محاولًا تفادي لقاء العيون، شعرت أنها تريد تلاقي الأعين بشتى الطرق، من كثرة محاولات هروبي شعرت بالإرهاق، وضعت يدي بجواري استعدادًا للنهوض إلى غرفتي فألقت عليَّ بشباكها لتحبط محاولة خروجي من تحت سيطرتها بسؤال قديم:

_هل انتهيت من المذكرات؟ هل توصلت لشيء منها؟.

لأجد حبيبتي تؤكد:

_حقًا كنت أريد أن أسألك نفس سؤال أمي، إلى أين توغلت فيها؟.

أجبتهم عن السؤال بأن الثعبان الذي لدغ وبث سمه لم يصل لما تمناه، كل مرة ينصب الفخ لأحد تأتي ابنته تحبط فخه مرة بصورة مفاجئة في عيد ميلادها ومرة بدخولها الفندق دون قصد منها، وجدتهم ينظرون لي باستغراب، أدركت أنهم يريدون بعض التوضيح وأنا ليس لدي الاستعداد، قلت لهم عندما أنتهي سأقص لكم كل شيء بالتفصيل لأني مثلكم الآن لا أفهم شيئًا، عاودت لوضع يدي مرة أخرى بجواري محاولًا التحليق بعيدًا عن أنظارها لكن للمرة الثانية تفشل محاولتي بسؤال جديد:

_هل تعلم ما الغرض من المذكرات؟.

أجبتها على السؤال من داخل المذكرات:

_لكشف حقيقة وتوضيح معلومة.

_حقًا.

ثم صمتت، شردت قليلًا، أمسكت بشيء لا أراه ربما هي كانت تراه، من الممكن أن يكون كوب ماء لتطفئ به حريق أو حبل تنجد به غريق، ذلك في مخيلتها، الواقع كانت تمسك الفراغ، نظرت إلى بنتها، لوحت لها بإشارة تعني (لم أفهم شيئًا)، هي ما زالت ممسكة به، شاردة وبصوتها الحازم الذي يحمل نبرة شر، بدون أن تنظر نحوي وجهت لي كلامًا بأني لابد أن أعلم ليس الهدف من كتابة المذكرات توضيح الأشياء فقط، هناك أشياء أخرى لا يدركه الذي يقف على البر، لكن يدركه الشخص الذي يغرق وهو يلتقط آخر أنفاسه، حقًا ستكون لحظات تقدر ببضع ثوانٍ لكنها كافية لتسجيل مذكراته كاملة، حينها لا يهم من يقرؤها أو يراها، المهم أن يترك وراءه شيئًا من الممكن أن يعيده مرة أخرى للحياة، إن لم يكن بجسده سيبقى بسيرته، كاتب المذكرات يحتاج إلينا أكثر مما نحن نحتاج إليه، لولا حاجته لنا لما كتبها.

نبرة الشر تحولت لحزن، دار في ذهني سؤال لماذا الحزن؟، هل هي تعرف كاتب هذه المذكرات معرفه شخصية؟، أكيد تعلم عنه ما لا أعلمه، انتظرت حتى تنتهي من شرودها، سألتها هل تعرف عبد الرحمن جيدًا؟، أجابتني:

_ربما أعرفه، ربما لا أعرف عنه شيئًا، شعور يأتيني في لحظات أشعر فيها أن لا شيء يخفى عني، في لحظة أتأكد من عكسه.

كعادتها لم أصل منها لغرضي سواء في فهم إجابتها أو نظراتها، انتهزت فرصة أن جميعهم متواجد في مكان واحد، رغم أن الدكتور يبعد عنا قليلًا لكنه سيسمعني عندما أبلغهم أنني اقتربت من الانتهاء من مهمتي، غدًا أخر يوم لي معهم لقد اشتقت لأمي، لقد قاربت إجازتي على الانتهاء، بخلاف نظرات الحزن التي رأيتها في عيون نرجس وجدت نظرة مرتبكة من أمها امتزجت بابتسامة الرضا والحزن، أما الدكتور لم يرفع عينيه من الكتاب، كأنه انعزل عن مجلسنا لا تربطه بنا أي صلة، أخيرًا استطعت وضع يدي بجواري لتساعدني للنهوض، فعلتها، استأذنت منهم، دخلت غرفتي.

****

مهما كان الشر ممتعًا وأحداثه كثيفة، متلاحقة، يأتي عليه أوقات يصاب بالملل عندما يواجه الخير، كأن الخير جرثومة تصيب، تقتل بدمٍ بارد، هذا ما شعرت به عندما تزوجت نجاة وهي تعلم أني السبب في الفساد والقتل الذي ملأ قريتها، وصل الأمر من أجل أن أنال مرادي منها قتلت من يحميها، يساندها، انتظرتها تثأر مني، لم تفعل، لم ترد لي الشر بالشر فالخير ملأ قلبها ولم يبقَ فيه مكان لشيء آخر، تركت لها بندقيتي أمامها ولم ترفعها وتطلق ما فيها عليّ، انتظرت أن تسمم طعامي، تمزق أمعائي، أتألم لأكفّر عما سببته من أوجاع والآم لقرية كاملة، لم تفعل، الخير مرعب في هدوئه ووقاره، يجعل الشر دائمًا في حالة تأهب وخوف من ردة فعله، جعلت الماء الطيب في فمي ليس له طعم، نجاة بالحب انهت حياتي، قطعت علاقتنا، عاشت وحيدة، حزينة، ابنتها الشيء الوحيد الذي جعلها على قيد الحياة، وسمة كانت طوق النجاة لي، أنقذتني من الضياع عندما أعادت زوجتي للحياة بعدما كان عمرها معي مجرد أيام.

شعرت بالغيرة من قلبها الناصع البياض، قررت أصبح مثلها، عندما اشترت بميراث والديها فيلا في قلب القاهرة لتعيش فيها مع ابنتها أردت الدخول معهم، لكن مثلهم لا أقل منهم، لا بد من قلبي ألا يحمل مثقال حبة من حقد أو غل لأحد، وإزالة كل الشرور من حياتي، ذهبت لسيدي لأنتهي من أهم وأقوى مصدر للشر الذي دمر حياتي، دخلت القرية التي كبرت وترعرعت فيها في منتصف النهار وسط سطوع الشمس، جعلتها

شاهدًا على قتل أحد أبنائها وآخر ضحاياي، لكن لم أجده، كأنه اختفى وسما عن الأرض، وجدت أحد تلاميذه جالسًا مكانه يتحدث باسمه يعلم بما كنت أنوي فعله، حكم عليَّ بالطرد، الطاعة العمياء طوال حياتي، خرجت من القرية وأنا التفت حولي خشية من رصاصة تترقب غفلتي تستقر في قلبي بجوار حبيبتي أو قد لا تصيبني، تصيب حبيبتي، قررت أن أحتمي بكم، أصبح لي في كل مكان رجل يحمل هويتي، أفكاري، إن مت سأظل حيًا، إن دفن جسدي فقلبي لدى وسمة، عقلي في كل تلاميذي، أنت يا عبد الرحمن أنجبهم، أكثرهم قوة، لأن لكل قاعدة شواذ، لكل عقيدة أعداء، انشق عني مدير أعمالي، من منطق حب الاستطلاع أن يرى أي الشر أقوى، أصبح من الشواذ، خان الأمانة، أعطى أعدائي مستندات تدينني، تقذف بي وراء الشمس، أجبت حب استطلاعه، أثبت أني مصدر الشر، ليس الأقوى فقط، ذاق كل أنواع العذاب، لكن بعد فوات الأوان؛ أصبحت عرضة لابتزاز أعدائي، إما أن أنفذ كل متطلباتهم إما أن يقضي على اسمي وملاحقة الأضرار لابنتي من بعدي.

لم أجد سواك لهذه المهمة، أنا واثق أنك ستعيد لي ما فقدته لسببين أولهما هو حبك لوسمة وموافقتي لرجوعك لها، بالطبع لا يرضيك أنها تنكسر، تعيش ما تبقى من عمرها بوصمة عار لما فعله والدها، الأمر الثاني لأنك تريد إنقاذ سرور، أنت تعلم أن كل دقيقة تمر تزداد الخطورة على حياتها، الآن الأمر بين يديك، حرية الاختيار متروكة لحكمتك وتفهمك

للموقف، إما أن تساعدني وتنقذ سرور، تعيد وسمة، وإلا تتركني وتموت سرور وتفقد وسمة.

استمعت وأنصت حتى انتهى الأستاذ علي بركات من قصته كاملة، دار في ذهني سؤال منذ الصغر يحيرني، لم أجد له إجابة، هل إن وجدت الوسواس الذي دمر حياتك أمامك حقًا ستقتله أم ستتركه؟، هو أمامي الآن، لا أستطيع أن أفعل معه شيئًا، حاولت استرجاع قوة الصبي، حماسته، حاولت أن أغضب، أثور، أنهي حياته بيدي، لم أقدر على فعل شيء سوى الالتزام بهدوئي ومحاولة تفادي خطأ الماضي، السير وراءه وأنا مغمض العينين، نظرت له، لم أجد في عينيه أي خوف أو ترقب، كأنه يعلم رد فعلي، واثق من التغاضي عن قتل أبي، إجباري على سرقة ضحاياه، لا فائدة من الجلوس أمامه كثيرًا، أعلم أنه يسمع ما يدور في ذهني جيدًا فقلت له:

_مستحيل أحط أيدي في أيد اللي قتل أبويا، لكن عشان سرور وإنقاذ حياتها أنا هساعدك، بعد كده هنتحاسب.

ابتسم بمنتهى البرود، شعرت أنه لم يسمع آخر كلمة أو لم يعطِ لها اهتمامًا قائلًا:

_أول ما استلم المستندات وعد مني تستلم أوراقك الأصلية بكل ممتلكاتك، أوعدك كمان بمساعدة مني لسرور.

_سرور مش محتاجة ليك.

تركته، رحلت بدون استئذان أو إلقاء سلام.

في كلامي لم أذكر وسمة ربما لأني لا أستطيع الوعد بشيء وأتراجع فيه، لم أفهم موقفها إلى الآن من أفعال والدها، هل هي مشتركة معه أم ضحية من ضحاياه؟، هذا ما شغل بالي طوال الطريق وأنا ذاهب إليها.

****

طرقت بابي بيدها الناعمة الرقيقة، ميزتهما من أسلوبها المنفرد في الاستئذان، سمحت لها بالدخول وجدت ملامحها الجميلة الهادئة حزينة، حائرة، بدون مقدمات قالت:

_حقًا سترحل لأنك انتهيت من قراءة أوراقك أم أنك مللت حياتك معنا؟.

_ربما السببان لأنني اعتدت على حياة العبث والفوضى.

سيطر الصمت بيننا، طالت نظرتها لي، لم تجد ما تقوله، فأكملت:

_لم انتبه يومًا لنفسي في المرآة أو للنظر في صوري، لأني كنت أخشى إن رأيت نفسي لم أعرفها، إنما معكم بدأت أرى حقيقتي، اكتشفت أني أسوأ من وصف أمي لي.

تقدمت خطوتان واضعة يدها على صدرها:

_لم نقصد ذلك.

_اعلم.. كما أعلم أن المصور لا يقصد أن نرى حقيقتنا وقبحنا.

عقدت شفتيها باحثة عن كلمات ونظرة إلى الأرض:

_هناك مصورون مخادعون لا يظهرون سوى الأكاذيب.

_هناك مصورون لا يلتقطون سوى الحقائق المريرة أو اللحظات الصادقة.

تقدمت خطوتان نحوي، جلست على ساقيها، وضعت يدها على ساقي:

_إذًا ما هو قرارك الأخير.

_العودة.

مظاهر الحزن أعطت لملامحها عمرًا أكبر من عمرها، أثر هذا في صوتها:

_لم أمنعك، لكن أريد أن أخبرك عندما تصل لأروبا، تتجول بين فتياتها، جدرانها، شوارعها، تذكر إن لديك جدران تشتاق للمس يدك، شوارع تنتظر مرورك فيها، مهما التقطت لك صور تذكر أن لك هنا صورة ناقصة لا تكتمل بدونك.

قامت من مكانها، أغلقت الباب وراءها.

****

أعلم جيدًا أنني سأدخل في مباراة كرة قدم بلا قوانين، فى ملعبها، وسط جمهورها (قلبي.. عقلي)، هي كاملة العدد، أنا بمفردي، نتيجة المباراة معروفة، ما أتمناه في هذه اللحظة هو الظهور المشرف، من أين أبدأ كلامي؟، ما هي الأسئلة التي من المفترض أن أسألها لأبرئها، لا أريدها أن تكون شريكة والدها أو تكون مثلي اقتبست من شره شيئًا وأصبح لها طريقها المستقل المليء بالذنوب، إن وقعت في فخه ليس أمامي سوى أن أستمر في حبها فالحب بالنسبة لي ضعف وسلب إرادة.

قارب وقت الغروب وأنا في طريقي ذاهب إليها حسب العنوان الذي وصفته لي، فندق فلسطين بالمنتزه، حديث المنشأ، شيد سنة (**1964**م)، حيث أمر رئيس البلاد جمال عبد الناصر إقامته ليعقد به ثاني قمة عربية من (**5** إلى **11** سبتمبر)، يتميز هذا الفندق أنه يطل على خليج المنتزه، هو في الأصل جزء من حدائق المنتزه الملكية البالغ مساحتها (**370** فدان)، بها سبعة شواطئ، للفندق شاطئه الخاص، عندما وصلت إلى الفندق، دخلت الكازينو الخاص به وجدتها هناك، كأنها تنتظرني، رأيت ملاكًا ينظر لي، عندما ابتسمت ظهرت أسنانها البيضاء، كاد قلبي أن يتوقف حين رأيتهم، سمعت نبضات قلبي تناديها باسمها لتأخذ به قبل أن يتوقف عن النبض فوضعت يدي عليه خوفًا لأحد يسمع نداءه وليهدأ فالمسافات اقتربت ولحظات ستختفي بيننا.

قبل أن أجلس سألتني هل أريد أن أجلس أم نتجول حول شاطئ الفندق أشرت لها نحو الشاطئ، مشينا، أصوات الأمواج كانت تعزف حولنا أجمل الألحان، الشمس لا تريد الرحيل وتطفئ من حولنا الأنوار فالشمس تجهل أن لحبيبتي نورًا كنورها بل أشد تأثيرًا، لامست يدها يدي، أخيرًا تشجعت، واجهتها، سألتها ماذا تعرف عن والدها، لم ترتبك أو تفكر طويلًا في الإجابة وقالت:

_أعرف اللي أنت تعرفه، يمكن أقل.

_أبوكي قاتل وسارق ونصاب.

_ما شفتش منه حاجة لكن مش هكدبك.

_إزاي؟ وإيه معنى كلامك؟.

تنهدت تنهيدة واحدة لكنها كانت طويلة جدًا فضحت ما بداخلها ومدى الثقل الذي كرثه الحزن في قلبها، أخبرتني لولا علاقتي ومعرفتها بي جيدًا لمَا كانت ستبوح لي لأنها لا تستطيع أن ترى أحداً يرى والدها كما هي تراه، عندما أقامت بحي المعادي مع والدتها في فيلا (ليماس) التي تقع في (شارع **85**) المعروف قديمًا بشارع (جون دايموند) لأنها فضلت ألا تعود لـ(كفر البدماص) بعد فراق والديها وتشتري بميراثها هذه الفيلا، رأت اضطراب في العلاقة بين والدها وأمها، شعرت بضعف موقف والدها وبالأخص عندما غاب قليلًا، عاد، وقال حينها أنه كان في قريتنا، رغم إنها

ما زلت لا تعلم لِمَ ذهب هناك لكنه عاد محمومًا، ضعيفًا بعض الشيء، هذا سبب تعاطفها معه وانحيازها له، رفضت أفعال أمها معه، سرعان ما عاد والدها أفضل من حالته السابقة، رأته به قوى، أكثر جرأة في وقفته أمام أمها، انعكس الحال، تضاربت مشاعرها، أحست بصعوبة فهم ما يحدث حولها، صمت أمها، نظرات والدها، شيء غير طبيعي إلى أن جاء يوم كانت أمها تعاني من عدم القدرة على التنفس، لازمتها ارتفاع حرارة في جسدها، كان والدها بجوارها، غرفتهم مغلقه عليهم، فجأة خرج والدها، تبدلت أحواله، كأنه اكتسب مرض أمها، ناداها، أوصاها، أن تراعي أمها إلى أن يحضر الطبيب في عُجالة، دخلت على أمها فوجدتها تلتقط أنفاسها الأخيرة وصتها بوالدها، ألا تتركه أو تتخلى عنه، أن تحاول إصلاح ما أفسده الزمن بينهم، كم كانت تتمنى أن تراها سعيدة معي وأضافت إني الوحيد القادر على إسعاد ابنتها، كم سعدت أمها برجولتي، حبي الصافي لهم، تركت لها شيئين الأول أصل الملكية للفيلا، كتبتها باسمها، الشيء الثاني صورتها معي، أوصتها بالحفاظ عليهما جيدًا، ألا تفرط في شيء منهما مهما كان الثمن، توفيت بسلام في غياب والدها، عندما أتى انهار وصعق من الحدث، مع مرور الأيام عاد لحياته الأولى فأبلغته عما تركته أمها لها، لم يعترض، مع مرور السنين اكتشفت عن والدها أشياء بعضها يصدق، بعضها لا يصدق، رأت له أولاداً بلا أم، أتباعاً بلا مذهب، في كل مكان كانت تخطو به تسمع عن أسطورة قام به والدها، واجهته بكل ما سمعت أجاب على بعضها،

رفض بعضها، لكن لإجابته كذبة، لصمته ألف إجابة، أضافت ربما كان يستغلها في شيئًا، هي لا تعلم، ربما لم يفعل شيئًا، كل هذا قابل لتصديق والنفي أما الحقيقة فهي غائبة في كل الأحوال.

حمدت ربي أنها لم ترِث منه شيئًا أو تشاركه في جرائمه، رغم ذلك طلبت أن تقسم بأغلى شيء لديها على إنها لم تشاركه في أفعاله، ردت:

_أقسم باللي خلقك وخلى في قلبي حبك ملهوش حدود ما شركته في أفعاله.

قبلت يدها أكثر من مئة مرة، الفرحة غمرتني بعدد أمواج البحر بعدد حبات الرمل، ظللت أهرول في كل مكان وأقفز لألحق بالسماء، لا أعلم إلى أين أنا ذاهب، أعود، أهرول حولها، خلعت قميصي، أردت خلع باقي ملابسي، لأول مرة أشعر للجنون حلاوة لا يدركها إلا المصاب به، هي كانت ترددها:

_مجنون.. ههه.. والله مجنون.

كيف أسمع منها قسماً بحبها ولا أشعر بهذا، ثم توقفت، تذكرت عصمت وسرور فجذبتها من يدها، أخبرتها أن لابد معرفة ما حدث لعصمت وسرور في هذين اليومين، ونحن في الطريق حكيت لها قصة سرور ووالديها وما حدث لعصمت بالتفصيل الممل، تعاطفت معهما جدًا، أحبتهما بدون أن تراهم، هكذا يكون القلب الرحيم يسع بدل الفرد ألف، لم يعبأ أو يشعر بملل.

وصلنا مستشفى المواساة التابعة لجمعية المواساة الإسلامية الخيرية التي تبنى فكرة بنائها السيد محمد فهمي عبد المجيد في اجتماع عقد سنة (**1929**م)، وضع بها شرط أساسي بتخصيص قسم كبير للفقراء، تم افتتاحها بحضور الملك فاروق سنة (**1936**م)، أثناء بحث عصمت لطبيب متخصص لحالة سرور مصادفةً تواجد دكتور شامي الأصل يبحث عن حالات حرجة مثل حالة سرور لعلاجها، تم استقبال سرور بالمستشفى بالمجان، لأن الأدوية باهظة الثمن ونادرة يلتزم أهلها بمصاريف الأدوية أما الكشف بالمجان، كانت الساعة العاشرة ليلًا، قبل أن ندخلها وجدت عصمت قادمًا من بعيد نحو المستشفى استغربت أنه لم يكن بداخلها، اتجهت نحوه أسأل عن السبب، هل الأمور على ما يرام؟، أشار بأنه بخير لكن ملامح وجهه توحي بعكس ذلك، حاولت مجددًا أعرف ما به فسألته:

_أنت لسه زعلان مني؟ صدقني اللي حصل كان غصب عني، أنا آسف.

_أنا مش زعلان منك أنا زعلان من نفسي أنا فشلت أبقى بني آدم كويس أو منحرف ولما حاولت أنقذ مريضة برضو فشلت.

ثم جلس على الرصيف، وضع يده فوق رأسه مسح عليها برفق، كرر:

_أنا فاشل، مش عارف أعمل حاجة.. مش عارف أعمل حاجة.

جلست بجواره، أمسكت يده، حاولت تهدئته، بعد عددت محاولات توقف عن الكلام، حاولت المزاح معه:

_مش عايز تقولي كنت فين؟ شكله سر كبير.

ابتسم قليلًا، ثم نظر لوسمة المنتظرة أمام باب المستشفى، أشرت لها لتأتي وتتعارف على عصمت، بعد تعارفهما جلست معنا على الرصيف، قبل أن أطرح نفس سؤالي الأخير بدأ هو الإجابة، علمت أن سرور رفضت أكثر من مرة الارتباط به لأنها ليس لها أهل، تريد أن تسير الأمور كما هي متعارف عليها، يتم طلب خطبتها من أهلها أو من رجل بما تحمل الكلمة من معنى مثل والدها، ثم يأتي، يسألها هل هي موافقة أم لا، ثم يشترط عليه شروط تعجيزية تدل أنها غالية عند أهلها، يضمن لها عدم إهانتها أبدًا؛ يتم عرسها وسط أهلها وأحبابها ككل البنات، تصبح ليلتها أجمل الليالي ولأن والدها فاقد التمييز، أهلها يريدون قتلها، فكل هذا يصعب تحقيقه.

لإصرار عصمت على الارتباط بحبيبته ذهب في الصباح لوالدها في عنوانه أمام مقابر عائلة أمها، قابله في أصعب ظروف لعريس وهو يتقدم لخطبة عروسة، فالأب لا يدري شيئًا، العريس يعاني من فشل كلوي، العروس تعاني من ضعف القلب، رغم ذلك تحدي عصمت الظروف، مد يده لعم نشأت قائلًا:

_أنا عصمت عزمي جاي طالب أيد بنتك سرور.

نظر له بعينيه ووجه للأرض وعاود النظر مرة أخرى للأرض بدون أن يمد يده لعصمت، حينها أكمل عصمت:

_على فكرة أنا بحبها أوي، هي كمان بتحبني، هي محتاجلك توقف جنبها في يوم زي ده.

عم نشأت ما زال يهز رأسه، كأنه في حلقة ذكر، لم ينظر له، أبعد عصمت يده ووضعها على صدره:

_أنا صحيح عريس مش كد المقام لكن عندي اللي مش عند حد؛ عندي قلب في أقرب وقت هيبقى ملكها يا عم نشأت.

رفع عم نشأت رأسه، ابتسم نصف ابتسامة وهو ما زال يهز رأسه ولم ينطق بشيء، أكمل عصمت:

_يا عم نشأت قوم معايا، مد أيدك في أيدي، إن شاء الله سرور هتعيش أحسن مننا، بنتك بتحبك أوي، أنا كمان من سيرتك حبيتك واحترمتك.

هنا وضع عم نشأت يده المتسخة على وجه عصمت، ما زال نصف الابتسامة مرسومة على وجهه، فجأة سقطت يده دون إرادته ثم نظر للأرض ولم يرفعها، يئس عصمت من إفاقة عم نشأت وعودته لصورته الأولى، أدرك أن عقلة ذهب مع مريم.. لم يعد مرة أخرى.

تركه.. رحل، قبل أن يغادر المكان جاءت صورة سرور أمامه فلم يستطع مغادرة المكان، قرر أن يحمل عم نشأت بالقوة وأعادته لبنته حتى ترضى بالارتباط به، كانت المفاجأة أن عم نشأت فارق الحياة، أصبح جثة هامدة، كأنه أدّى رسالته وأطمأن على ابنته الوحيدة، قام عصمت بفعل كل شيء،

كأنه والده إلى أن تمكن من دفنه قرب موعد الغروب بمقابر الفقراء بعد رفض أهل أم سرور دفنه بجوار زوجته مريم.

انتهى حلم الارتباط من سرور للأبد بعد موت والدها، فهو لم يستطع أن يخبرها بذلك لضعف قلبها، لم تتمالك وسمة نفسها، بكت على نهاية عم نشأت المأساوية، رددت:

_الله يرحمك يا عم نشأت.. الله يرحمك.

قرأت له الفاتحة وقرأنا معها ثم قلت:

_لكن أنت أتأخرت كتير، الساعة دلوقتي قربت على نص الليل كنت فين ده كله؟.

أخبرني بعد الانتهاء من دفن عم نشأت الشمس غربت، شعر بضيق، اختناق، فذهب لأقرب شخص إلى قلبه، أخته الصغرى أمنية عزمي، حكى لها ما حدث، علم منها أن قريبًا جدًا سيتم خطبتها، فهي الآن تعيش في أجمل قصة حب مع زميلها في الجامعة، يسمى رأفت شهاب.

****

الفصل السابع

حطمت القيود، فن الخصال الحميدة واحترام الآخرين التي تعلمتها في بلادي وجئت أطبقها هنا، خرجت من غرفتي كالمجنون أبحث عنها، أسرعت إليها كالذي لدغه عقرب ويريد المصل قبل فوات الأوان، أريدها تجاوبني على حقيقة ما قرأت قبل أن يتمكن مني الفضول ويقتلني.

وجدتها جالسة في قاعة استقبال الضيوف بمفردها تاركة ظهرها لباب الدخول، لم يخطر ببالي أن أطرق الباب، دخلت، لم تشعر بتواجدي خلفها نظرت عم شغلها وجعلها جالسه بمفردها ولم تشعر بمن حولها وجدتها ممسكة بصورة لي في صغري، مؤكد ليست لي، تشبهني فقط لأني لا امتلك صور كلاسيكية بمنتهى الحرفية هكذا، سألتها دون إرادتي:

_من الذي في هذه الصورة؟.

_أليست لك؟.

_لا.. هذه الصورة ليست لي لكنها تشبهني.

لأول مرة تنظر لي وابتسمت قائلة:

_حقًا إنها صورة كاذبة لأن هناك فرقًا شاسعًا بين صاحبها وبينك.

أكملت حديثها بمقارنة بيني وبين صاحب الصورة، وصفته كما وصفتيه يا أمي، غرقت أيضًا في بحور ذكراه، كأنه ساحر النساء أدركت جيدًا أن كلامها بخصوص عصمت عزمي الذي غير مسار حياته الحب، جعله بيننا خالدًا لا يغيب.

قاطعتها عن المقارنة غير المنصفة، قلت لها إن اسمها ورّد في مذكرات عبد الرحمن، سألتها عن صلة القـرابة بينها وبين عصمت، رددت اسمه بلطـف ثم ركزت بالنظر في وجهي كأنها وجدته، يقف مكاني، دمعت عيناها، وقفت، فردت زراعها فاقتربت منها وحضنتني قائلة:

_أنه أخي.. كم تمنيت أن أحضنك يا ابن أخي، أقبلك، لقد عوضتني عن غيابه، الآن أشم رائحته بين زراعي.

بعد عناق طويل جلسنا، ما زلت لم أصدق أني طوال هذه المدة كنت في منزلي، وسط عائلة عمتي، صارحتها أن نظرتها من أول وهلة أربكني، انتابني إحساسٌ أن علاقتي بالدكتور رأفت لا تمر بسلام، فسألتها لماذا لم تصارحني بالحقيقة فور وصولها، أقنعتني أنها تحملت بُعدي عنها رغم قربي لها في سبيل بقاء ذِكرى أخيها كما هي لا يفسدها ابن له لا يورث شيئًا منه سوى هيئته، في أول لقاء عندما ذكرت والدي بالنصاب شعرت نحوي بالجفاء، كم كنت قاسيًا عليه لكن راجعت نفسها، تذكرت إن أقرب الناس إليه حتى الآن ما زالوا معتقدين عنه ذلك، ربما مذكرات عبد الرحمن تصحح ما أفسده الزمان.

حاولت عدم أثارة غضبها وأنا أسألها:

_لكن يا عمتي أبي بالفعل ارتكب أخطاء تحسب عليه لا له.

عقدة شفتها، لم يستغرق ردها لحظات قائلة:

_كان لابد أن تجلس معه قبل الحكم عليه.. هل تؤمن بالظلم، القبح، الشر؟.

أومأت رأسي بنعم، فأكملت:

_ما دورهم في حياتك؟ طبعًا لم يكن لهم دور لأنك معصوم من ذلك وباقي البشر هم من ينشرون هذه الصفات من حولك.

_لا لم أكن معصومًا، كثير من الأحيان طغى الشر عندي، مارسته على الغير.

_إذاً لماذا تحمل والدك شيئًا بداخلك، لم تستطع طرده؟.

لم أجد الرد المناسب لها، ربتت على كتفي، قالت لي لابد أن أفخر بوالدي لأنه أنتصر على الشر الذي بداخله، استطاع أن يطرده.

_طرده! كيف؟.

_لا تسبق الأحداث، كلها لحظات وتمحي كل علامات الاستفهام التي في عينيك.

****

سمعت الخبر منه بنبرة حزينة لا تناسب الحدث اعتقدت أنه ما زال متأثرًا بموت عم نشأت حاولت أن أشغله بخبر خطبة أخته عن خبر موت عم نشأت ففاجأني أن أخته أخبرته أن رأفت شهاب من عائلة عريقة، ثرية، إذا علِمت أن لديها أخًا نصابًا من أرباب أرصفه وشوارع سيرفضونها، يكسرون قلبها فتم التعتيم على الأخ العاق ولم يحسبوه من العائلة، بكت أخته أمامه، طلبت منه السماح لأن هذا ليس فكرتها أو قرارها، لكن تم بالإجماع من أسرتها ثم صمت قليلًا وسط صدمة مني ومن وسمة، خيبة أمل سيطر علينا، وجدناه يقول:

_أنا النهارده مت مرتين وحاسس أن التالته قربت، لون جلدي أغمق للبني، حاسس أن عضمي بيتكسر ودية آخر العلامات اللي قال عليها الدكتور الخواجة، مش قادر أعمل حاجة لنفسي ولا لسرور، مصيرنا هيكون زي أبوها وأمها.

_متقولش كده يا صحبي أمال أحنا هنا ليه؟ تعالي معايا.

أخذته داخل المستشفى، حاولنا أن ندخل لسرور، منعونا، طلبوا منا الالتزام بمواعيد الزيارة، أحبطت جميع محاولتنا للدخول، خارجنا مرة أخرى إلى الشارع، جلسنا على الرصيف صامتين مفكرين لوجود حل، نهض عصمت مسرعًا قائلًا:

_خلاص لقيتها.

_لقيت مين؟ سرور؟.

_لأ اللي هيدخلنا لسرور.

ذهب مسرعًا داخل المستشفى ونحن وراءه، وقف أمام موظف الاستعلامات، طلب منه مقابلة الدكتور ساري العايدي لأمر هام، طلب الموظف الانتظار، ذهب لغرفة الأطباء؛ سألته:

_هو ده الدكتور اللي قلك تسافر بسرور؟.

_آه ده دكتور شامي أو خليجي متابع حالة سرور، بس دكتور جدع أوي.

لم يتأخر الرد، وجدناه أمامنا، انتابني الشعور بالغيرة، الاختناق منه عندما رأيته، قلت بداخلي هذا ممثل، عليه ترك هذه المهنة، كم كان جذابًا، صغيرًا في العمر، أشقر اللون، شعر المائل للاصفرار مصفوف للخلف، لكنه من تأثير الهواء يتطاير يمينًا ويسارًا، عيناه الخضراوان تضاءلتا عندما ابتسم، ظهرت أسنانه المتناسقة اللامعة ما بين شفتيه الجميلتين الورديتين، عندما اقترب منا مد يده ليسلم أمسكت يده الناعمة، أطلت في مسكها، نظرت لوسمة بنظرة حادة حتى لا تسلم عليه، عرفنا بنفسه أنه دكتور قادم من لبنان تعلم في أمريكا الطب على يد الدكتور/ نورمان إدوارد شيموای؛ المتخصص في أمراض القلب، هو صاحب فكرة البحث عن الحالات الحرجة لعلاجها، وهو هنا الآن لتحقيق رغباته، تم بالفعل إرسال بعض الحالات من بلده، مرورًا بسوريا، فلسطين، ومصر آخر محطاته قبل السفر نهائيًا لأمريكا، يرى في سرور أملًا في الشفاء، طلبت منه التحدث معه على

انفراد فوافق، تركت وسمة وعصمت ورائي، حدثته، أعجب بكلامي ووافق على فكرتي معللًا إن فكرتي تساعد سرور بشكل كبير في علاجها.

أخذنا الدكتور ساري لغرفة سرور وجدناها مستيقظة فبدأت أنا بالكلام:

_أيه ده أنتي صاحية ليه يا سرور؟.

نظرت لنا، وجدت ابتسامة من الحضور، معنا عصمت، ابتسمت قائلة:

_إزاي أنام وأنا معرفش عنه حاجة وسيبني على طول لوحدي.

في إشارة إلى عصمت نظرت له باستياء، مضيت نحوها، جلست بجوارها:

_أنا هخليه يبقي طول عمره جمبك، من هنا ورايح مش هيسيبك.

بيأس قالت:

_ما تتعبش نفسك يا أستاذ أنا حاولت كتير معه، معرفتش، هو كده بيحب يغيب ويرجع برحته.

_أحب أعرفك بنفسي أنا عبد الرحمن صديق البيه، تقدري تقولي كده إني أبقى عمه ودي خطيبتي وسمة.

_أهلًا وسهلًا بيكم شرفتوني والله.

_بصي يا سرور أنتي خلاص مسافرة بعد كام يوم، إن شاء الله هتخفي، أنا عايز أفرح بيكم قبل ما تسافري.

بدأت الدموع تظهر في عيونها، رجوتها ألا تبكي، أبلغتها أني أعلم أنها لا تريد أن ترتبط بأحد بدون وجود أهلها، أشرت لوسمة، قلت لها لا بد أن

تعتبرها أختها، تعتبرني والدها، إلى أن يعود والدها بالسلامة، رفضت الفكرة فأمسكت يدها، جلست على ركبتي، قلت:

_لما تخفي وترجعي بالسلامة لازم أول حاجة تعمليها تروحي لأبوكي ومعاكي عصمت، أنا متأكد أنه لما يشوفك بخير وفي إيدك البيه هيبقي كويس أوي ويرجع زي الأول وأحسن، بس دلوقتي لازم تتجوزي المجنون ده عشان يبقى في حد مسؤول عنك في الرحلة.

نظرت لي غير مصدقة كلامي فأكملت:

_ليكي عليا وعد مني أول ما ترجعي هعملك فرح من أول وجديد يحضره أبوكي وكل حبايبك.

هزت رأسها بالموافقة قبلت يدها، طلبت من وسمة أن تقف بجوار سرور من الجانب الآخر لسريرها، عندما وقفت وسمة ندهت لعصمت الواقف بجوار الدكتور مذهولًا مما أصنع فأفاق من ذهوله، نظر لي فأخبرته أن سرور من هذه اللحظة بنتي، مسؤولة مني، أن كان يريد زواجها عليه بإقامة حفل زفاف يشهده جميع أهل الإسكندرية؛ رفع يده الدكتور ساري قائلًا أنها هدية منه للعروسين، شكره عصمت ونحن معه ثم طلبت منه إقامة العروس خلال الأيام المتبقية لها قبل سفرها في أرقى فنادق الإسكندرية، رفعت وسمة يدها، قالت إنها هدية منها للعروسين، شكرها عصمت ونحن معه، كان آخر طلبي أن يأتيني غدًا معه أحد أقاربه يطلبون مني يد بنتي سرور، بعد تفكير طويل _أوافق_، بعد صلاة العشاء يتم كتب الكتاب

والزفاف معًا، وافق عصمت، خرج مسرعًا من الغرفة، لا أعلم أين ذهب، استأذن الدكتور ساري وخرج ليمر على المرضى، طلب منا الهدوء، نظرت لي سرور، قالت:

_حرام عليك اشترط كتير على الجدع.

_لازم يعرف بنت عم نشأت غالية علينا.

بحثنا عن عصمت داخل وخارج المستشفى، لم نجده، تركنا له في استعلامات المستشفى عنوان فندق فلسطين الذي نقيم فيه أنا ووسمة، ذهبنا للفندق، حجزت وسمة لي غرفة، جلسنا سويًا في قاعة الاستقبال، طلبنا كوبين شاي، حدثتني وسمة عن وعدي لسرور بخصوص سفرها خلال الأيام المقبلة هل كنت صادقًا أم كاذبًا، أجبتها بعدم معرفتي مدى صدقي لها لأني فقدت كل ما أملك بالقاهرة، ليس أمامي سوى وضع يدي في أيدي الشيطان، أدخل بنفسي جحر الثعابين، اندهشت، رفضت الفكرة وعدم قبولها لخوضي لأي مخاطر على حياتي، ذكرتها بسرور ومائلة عليه، لابد من خوض المخاطر لضمان رجوع صحتها وعودة ثقتها بالحياة، حاولت تعرف هل والدها له صلة بذلك؟ نفيت بشتى الطرق، رغم علمي بتوتر علاقتهم لكن كنت لا أريد أن أصبح طرفًا في انفصالهم وأعلم جيدًا إن استخدمت وسمة في التوسل لأبيها لمساعدة سرور ستفشل حتمًا، لم نكسب غير إضاعة الوقت، خشيت من الثعبان أن يفضح أمري لها وتعلم مصدر رزقي وتضعني أنا ووالدها في سلة واحدة.

وعدتها أن الأمر لا يستغرق سوى ساعات قليلة، ليس به مخاطر كبرى، نظرت لي وسألت عن وعدي هذا هل هو صادق أم مثل وعدي لسرور، قلت لها لا أعلم، تركتها، كان صلاة الفجر قاربت فذهبت لغرفتي قبل أن يصل كـوب الشاي الذي طلبته.

لم يمر وقت وأشرقت الشمس، أصبحنا في وقت الظهيرة، استيقظت على صوت وسمة وهي تذكرني بقرب موعد عصمت لطلب يد سرور مني، طلبت منها أن تسبقني، تطلب لنا الإفطار، انتهينا من الإفطار، أسرعنا نحو المستشفى قبل انتهاء موعد الزيارة، حتى لا نتأخر عن عصمت ومن معه، وصلنا بالفعل وجدت عصمت منتظرنا في غرفة سرور، معه فتاة جميلة أرستقراطية ترتدي قبعة عريضة تشبه القبعات المكسيكية ملامحها شرقية عيونها سوداء مستديرة الوجه مهتمة بأدق تفاصيلها من رسم حاجبها الذي يشبه أمواج المعمورة، شفتاها شديدة الاحمرار بدون ألوان صناعية المتخذة شكل طائر يحلق في الفضاء، عرفني عصمت بأنها أخته أمنية عزمي التي حدثني عنها بالأمس، رحبت بها تمنيت لها اقتراب موعد زفافها على الأستاذ رأفت، ابتسمت ونظرت لأخيها معاتباه لإفشاء سرها فقال لها إنه لا يستطيع أن يخبئ عني شيئًا.

جلست أنا بجوار سرور، الراقدة على سريرها، كانت وسمة في الجهة المقبلة لي، أمامنا عصمت وأخته الصغرى، حضر الدكتور ساري بعد إرسالنا له، همست لي سرور قائلة:

_أوعى تطفش العريس مننا.

ابتسمت لها، نظرت لوسمة، شعرت أنهما شيئًا واحدًا، لديهما نفس الصفات، الاختلاف الوحيد هو المستوى المعيشي، كأن سرور موجودة في كل الطبقات الاجتماعية في طيبة قلبها وحنيتها على من حولها.

سألت عصمت عن سبب تواجده هنا؟، أجابني أنه يريد التقرب بطلب النسب في بنتي سرور، سألته ما يملك حتى يأخذ أغلى ما أملك؟، أجابني أنه لديه ما يسعدها طوال عمرها وهذا الشيء لا يمتلكه غيره، نظرت لسرور وجدتها طائرة من الفرحة، أبلغته إن وجدتها غاضبه منه سأنسى معرفتي به يومًا، حتمًا سأقتله لأن من يغضب بنتي لا يستحق أن يعيش، نهض من مكانه قائلًا:

_أنا عمري ما هزعلها دي عمري.. دي حتة من قلبي.

أتى مسرعًا حتى يقبل يدها فمنعته، أخبرته ربما أسمح له بفعل ذلك بعد الزفاف أما الآن غير مقبول، سألني عن الموعد فسألت الدكتور ساري عن موعد إذن خروجها مؤقتًا للزفاف وقضاء أيام العسل فقال لي هذا مستحيل لكن لهذه الظروف والأجواء سيفعل المستحيل ويعطي لها إذن الخروج الليلة مع مراعاة أخذ العلاج في ميعاده، ذهب يستحضر الإذن ويوصي أصحابه بنصب أكبر مسرح للعروسين في أكبر شوارع الإسكندرية، سعدت أمنية جدًا بالحدث، أصرت على التكفل بزينة

العروسة بنفسها فبادرتها وسمة بالمشاركة، باركت لسرور، قبلت جبينها، احتضنت عصمت، وذهبنا حتى نستعد لحفل الزفاف.

****

بدأت كلامها بعدم مقدرتنا بفهم أو تفسير الحب، برغم كلًا منا يوجد بداخله هذا الشيء لكن اختلفنا في التعبير عنه، كل فرد جعل له مذهبه الخاص، من خلاله يعبر عنه للآخرين، ربما عصمت أخطأ في اختيار المذهب والتعبير عنه عندما أدرك أن الموت سيصيبه لا محالة، بدافع الحب فضل الابتعاد حتى لا يرى قهر وكسر قلب أهلة وأحبابه، أراد أن يعيش في سلام حتى يموت بسلام لكن الشر حاصره من كل اتجاه، استفزه فقاومه بنفس سلاحه.

إن وجدت معركة قائمة مؤكد سيختلط عليك الأمر من هو الظالم، من هو المظلوم لكن عندما تهدأ الأمور وتنتهي المعركة ستدرك وتكتشف إن كنت على حق أم كنت ظالمًا في حكمك على الأمور، هذا ما حدث لنا ونحن نرى عصمت في قلب المعركة اعتقدنا أنه الطرف الظالم، لكن....

قاطعتها بسؤالي عن عصمت من أين أدركت أنه على عكس اعتقادهم، لمحت لها أن حكمها نابع من صلة الدم الذي بينهم، تنهدت، استرخت بظهرها على المقعد، نظرت أمامها إلى النافذة المطلة للحديقة، كأن أحداث قصتها تدور هناك وهي تحكي لي ما تراه، كانت تحكم عليه كما حكمت عائلتها من قبل، أيقنوا أنه انحرف عن الطريق بلا عودة، تركت ماضيه المشرف وارتباطها العاطفي له وراءها، أغلقت عيونها عن الحقيقة، حاول كثيرًا أن يوضح لها موقفه.. تسمعه، لكنها رفضت، ظلت محاولاته تزداد مع كل محاوله فاشلة، كان ينتظرها عند الدخول والخروج من الجامعة، لكنها

أبت أن تجعل بينها وبينه صلة، خشيت أن تصارح أهلها عن محاولات تقرب عصمت لها فيمنعوها من الذهاب للجامعة، إلا أن جاء يوم يبدو عليه الإجهاد بدون أن يمارس محاولاته المعتادة ليفتح معها مجالًا للحوار سقط أثناء متابعتها، بصوت متحشرج ذكر اسمها لتلتفت خلفها فوجدته ساقطًا على الأرض، مغشيًا عليه، أسرعت نحوه، غلبت مشاعرها على قراراتها، حاولت مساعدته للنهوض، عندما فشلت محاولاتها جلست بجواره احتضنته ودموعها ملء عينيها، اعتذرت له مرارًا وتكرارًا، طلبت منه السماح، لكنه كان فاقد الوعي.

تم تشخيصه حينها من أحد الدكاترة بضعف ناتج عن الإهمال الغذائي، كثرة السهر، قلة النوم، هذا بعدما حمله أصدقاؤها لأقرب عيادة، عندما أفاق من غيبوبته استاء من نفسه جدًا، شعر بالحرج من أخته أثناء نظرات أصدقائه له، كأنهم ينظرون له ولأخته للمقارنة بينهما، يحاولون أن يجدوا شيئًا مشتركًا بينهما والعجيب أنهم لم يجدوا، قام عصمت من سريره مكسور الخاطر، لم يستطع رفع عينيه في الحضور، شكر الشباب الذين حملوه والطبيب هناك، ثم استدار نحو أمنية وهو ما زال ينظر للأرض، اعتذر منها عما حدث، وعدها أن هذه آخر محاوله، لم يعترض طريقها بعد، مشى دون أن ينتظر منها ردًا، ظل يتجول في أنحاء الإسكندرية، عندما استقر على شاطئ السرايا تذكر عندما اتخذ أخته الصغرى في ذلك المكان

وظلا يلعبان، يمرحان، فجلس في نفس المكان فوجد أخته اتخذت نفس مكانها، ابتسمت له، ابتسم لها أيضًا.

منذ هذه اللحظة لم يفترقا، استمر لقاؤهما شبه يومي يحدثها عن آلامه، متاعبه، كم هو يعاني من اختلاف الجذري لحياته لكن وعدها سيأتي يوم تعذره عما فعله لكن هذا لم يشغل بالها، كل ما كان يشغلها هي قصته مع سرور وتطورات أحداثها معه، كانت شغوفة لسماعها، لم تمل منها، سعيدة بها، تنتظر عصمت يوميًا ليحكي عنها.

ثم صمتت قليلًا، ابتسمت بنصف شفاه، قالت:

_لم أصدق عصمت عندما أقسم أنه لم يتغير؛ لظروف خاصة ابتعد عنا، لكن صدقته عندما أحب لأن الحب يطرد الشر، خصوصًا إن كان حبه لسرور؛ سرور أعادة عصمت للحياة من جديد.

****

كلف الدكتور/ ساري بعض أصدقائه من أبناء الإسكندرية بمهمة إقامة مسرح للعروسين، وفراشته، تجهيزه من إضاءة، كراسٍ لجلوس الحضور على أكمل وجه، لقد كلفت هذه الأشياء الدكتور ساري كثيرًا جدًا مما أعطاني فكرة عن أصله ومعدنه الطيب، مدى كرمه، رقي أخلاقة، تركت عصمت المرتدي بذلته البيضاء بجوار الدكتور يستقبلان الضيوف، ذهبت إلى وسمة لإحضار العروس وتسليمها لعريسها، أخذت العروس ومعي وسمة وأمنية، اتجهنا إلى شارع سابا باشا، سمي الشارع هكذا نسبةً لسابا باشا أول مدير مصري من أصل لبناني لشركة البوستة الخديوية "شركة ملاحة بحرية" ثم عين وزير المالية، تكريمًا لمجهوداته سمي الشارع باسمه حيث أقام فيه الفرح، علا في المكان أصوات البروجي، تقدم عصمت ليتسلم زوجته لكني رفضت أن يلمسها؛ سألت عن المأذون أولًا، أعجبت سرور بما أفعل، رأيتها في منتهى السعادة عندما شعرت أن معها رجلًا واقفًا بجوارها، من الممكن تتساند عليه عندما تهوى، هنا حدثت نفسي أن من أجل رؤية هذا في عيونها سأفعل المستحيل، حقًا هي تستحق التضحية كما قال لي عصمت ذات يوم، عقد القران، كنت أنا وكيل العروس، وضعت يدي في يد عصمت، شهد الدكتور ساري ومعه دكتور صديقه على زواجهما، صعد العروسان خشبة المسرح حيث الزينة والزهور والأضواء الملونة، بدأ الغناء والاحتفال بهما، هنا تركته أخته ليستكمل الحفل الذي استمر حتى الصباح، ثم تجولا في شوارع الإسكندرية سيرًا على الأقدام تارة، مستقلين

سيارتهما المزينة تارة، حتى وصلا لفندق (فلسطين) حيث يقيمان، تتبعهما الزغاريد، الأغاني؛ شهد على عرسهم ليس حضور الحفل فقط بل سكان المعمورة كلهم، انتهت ليلتهما أفضل مما تمنيت، بعد أن أغلق عليهم باب غرفتهما أمسكت بيد وسمة، همست في أذنها:

_عقبالك.

نظرت لي وعدلت كلامي:

_عقبال كل حبيبين يا رب.

ثم ضحكت، ظهرت أسنانها البيضاء بين شفتيها السميكتين الورديتين، فأغلقت عيني عليهما خشية أن يراهما أحد غيري، تمنيت أن يصبح داخل عقلي كاميرا حتى أسجل تلك اللحظة فوق الإطار الورقي.

في هذا اليوم لم أنم ظللت مع وسمة مستيقظًا أتجول في ضواحي قلبها؛ تارة أجلس في حدائقها، تارة غارق في بحرها، كأني أتعرف عليها من جديد لم تترك يدي يدها اعترفت لي صراحةً بحبها منذ أول نظرة أثناء مساعدتي لوالدها في نقل أثاث منزلهم، اعترفت بحبي لها منذ أن رأيتها أثناء نزولها من السيارة مع أمها، تواعدنا على توثيق حبنا، ارتباطنا طوال العمر بعد الاطمئنان على سرور وعصمت، غزت الشمس نهارنا ذهبنا للدكتور ساري لمعرفة موعد سفره للمستشفى التي يعمل بها في أمريكا، أخبرنا أن أستاذه طلبه على وجه السرعة لمشاركته في إجراء بعض العمليات الخاصة بجراحة القلب، ويتمنى أن تذهب معه سرور، علينا الإسراع في تجهيز تكليف

العملية والإقامة والأهم من كل هذا وجود القلب البديل، سألته متى سيسافر، قال بعد أربعة أيام، فوجئنا من سرعة التوقيت، تركني مع وسمة نتحاور من أجل إيجاد حل؛ لم تثمر مناقشتنا شيئًا، تأكد سرعة تعاوني مع الأفعى هو الحل.

استأذنت من وسمة من أجل ملاقاة وتنفيذ مطالب رجل الأعمال الذي سيعطيني الأموال المطلوبة للسفر وعملية نقل القلب، تركتها وذهبت إلى فريد بك، كعادته وجدته في انتظاري، يعلم ما أريد، أعطاني معلومات ضئيلة للغاية، كأنه يريد تعجيزي، فشلي، أبلغني أنه الفرصة الأخيرة لي، إن فشلت سيعطي تنفيذ العملية لشخص آخر من تلاميذه لكن قبلها سيتم تصفيتي مع عصمت وسرور حتى لا يترك أثرًا يشهد على جرائمه، تفهمت من هذا الحديث أنّ الثعبان جريح طالما هذه الحقيبة ليست معه، سيقتل أي شخص شاهد على جرحه، ربما إن امتلكها يعود كما عاد كثيرًا من قبل، يصحح موقفه، يستعيد مكانته.

اجتمعت مع أصدقاء عصمت حتى يساعدوني في مهمتي وينتشروا حول المذكور سرقته، يمدوني بما ينقصني من معلومات، مستجدات؛ اتصلت بأصدقائي في القاهرة لمساعدتي في التنفيذ، لم يتأخروا، في لحظات أصبحوا بجواري، شعرت بقرب الانتهاء من كل الأشرار الذين عرفتهم لأن خطتي ليست أخذ الحقيبة فقط، بل بعد تأكيد سفر سرور وسلامتها سأقضي على الثعبان وأعوانه كما قضى على حياتي وقتل أبي.

أثناء تلقي المعلومات لأحكام قبضتي على اللصوص أتي أول صديق لعصمت، معه رسم لمخبأ الحقيبة والوقت المناسب لسرقتهم، جاء الصديق الثاني يؤكد المعلومات السابقة ويضيف أنه تقرب إليهم، علم منهم بالصدفة أن لديهم معلومات أنني أنوي سرقتهم، جاء الصديق الثالث أضاف أن الثعبان هو من أخبرهم أنني أنوي سرقتهم بدافع ابتزازه لدفع مبلغ ضخم يؤمن مستقبلي، ليثبت تضامنه مع أصدقاء الأمس الذين انقلبوا عليه وسرعة تفاوضهم معه بعد ما يتأكدوا صحة معلوماته.

بذلك الخبر صعبت المهمة جدًا بالنسبة لي، استنتجت بعد تفكير طويل الغرض من ذلك هو فشلي في المهمة لعدم زواجي من ابنته وعدم مقدرتي في علاج سرور، كل هذا سيحل للثعبان دمي لأني سأثبت ضعفي، عدم مقدرتي لإنقاذ أحد؛ هو لا يحب الضعفاء، أما للحقيبة ستعود له بعد إثبات ولائه لهم أو بتكليف شخص آخر ليس له أغراضي.

اختنقت، ضاقت بى كل السبل، انعزلت عمن هم حولي، اتخذت مكانًا بعيدًا في أقصى شاطئ (المندرة)، أفكر، أراجع حساباتي، أحاول إيجاد حل للمصيدة التي نصبها لي الأستاذ علي بركات التي لو دخلتها سأموت بأيدي أعدائه، إن هربت سأموت بيده، سيقتلون سرور وزوجها قبلي، وأنا أغوص في بحار أفكاري وجدت من يضع يده على كتفي نظرت ورائي وجدته عصمت ابتسمت له فجلس بجانبي، قال:

_كل الناس جات باركتلي إلا أنت، لما سألت عليك قالوا أنّك بتشتغل من ورايا.

_ألف مبروك يا عريس، روح أنت لسه في شهر العسل لما أعوذك هجيبك.

ضحك من كلامي، صفق، قال:

_شهر عسل؟ ده ساعة عسل، تلاتة وعشرين أدوية وعلاج، المهم أنت هتجيب الفلوس أزاي؟.

أدركت من سؤاله أنه يعلم شيئًا ربما أخبره أحد بما حدث، حاولت أن أهرب بشتى الطرق لكنه ألح في سؤاله، عندما فشلت في مراوغته قصصت له ما حدث لي منذ أن افترقنا حتى هذه اللحظة ثم سكت لأستكمل تفكيري فوجدته يقول:

_الحل قدامك، سهل، بسيط، أنت اللي مصعبها على نفسك.

نظرت له، فهمت قصده، لوحت برأسي أني أرفض، فانتفض من مكانه، علا صوته في وجهي قائلًا:

_ما هو مش بمزاجك، الموضوع ده يخصني أكتر منك.

لم يفهم أني أرفض مشاركته لأن أوراقنا مكشوفة لأعدائنا وأنه يخصني كما تخصني وسمة وسرور، موت أي منهم معناها موتي، أخبرته من المفترض الآن قتل الأستاذ علي بركات مباشرةً لكن ذلك لم يرضِ وسمة ولم نستطع بعده إعادة ممتلكاتي التي زورها إلا بعد أعوام لذلك أقف عاجزًا.

قاطعني عصمت، سألني لماذا أصر على أن الأستاذ علي بركات هو عدونا رغم أنه أضعف مما نتصور، إن كان به قوة فالذي أعطاها له هو من يستحق الموت.

نظرت له لا أفهم ما يقصد فأكمل كلامه بنحن من يستحق أن نقتل، نحن الذين انصعنا لرغباته، قَبِلنا أن نصبح مجرد قطع شطرنج يسهل عليه تحريكها كيفما شاء، أشار لنفسه، أكمل أنه يشعر بالعداء اتجاه هذا العالم بأكمله الذي ترك للأستاذ علي بركات يحدد مصيرهم أما الأستاذ هو غير موجود في حسبانه لأنه ليس له وجود، استطاع عصمت تشتيت أفكاري، بعثرة أوراقي التي كنت أرتبها للأيام المقبلة.

جلس بجواري مرة أخرى، قال:

_بص لي ده شكل واحد لسه متجوز؟ اللي يشوفني يفتكرني أن عندي سبعين سنه؛ المرض بياكل في جسمي مش هتفرق لو مت، الموت هيريحني، لكن أوعدك أني أدخل وأخرج بسلام ده بعد ما تخططلنا يا ريس.

توسلت إليه بالإقلاع عن فكرته لكنه أصر ووعدني أنه لم يصبه مكروه لأن العين مسلطه عليّ، ليس عليه، هم يدركون أنه عريس، لم يتصوروا قيامة بالعملية، لم أجد حلًا آخر سوى تنفيذ رغبته، وبناء الخطة عليه، حلفني إن أصابه مكروه بأن أسرع في نقل قلبه لسرور وإن خرج من هذا العملية بسلام سوف يهدي قلبه بنفسه لسرور بعد أيام قليلة عندما المرض يقتله.

باقي ثلاثة أيام على سفر الدكتور ساري، لا يوجد مجال للتفكير وتداول الآراء رسمت خطتي حسب المعلومات التي امتلكتها من أصدقاء عصمت، استندنا على تأكيد مراقبتي من أصحاب الحقيبة المسروقة، جمعت بعض أصدقائي وخرجنا نتجول في الأماكن المقربة للأعداء مما جعلهم يتأكدوا على نيتي للسرقة، شددوا الرقابة، أصبحوا على بُعد خطوات مني ومن خلف الكواليس عصمت في غرفته مع زوجته يقضون شهر عسلهما، أخبرها أنه مجبر على سفر لتدبير أموال سفرهم ثم بدأ الخطة؛ تنكر في زيّ عمال الفندق إلى أن خرج منه، ثم تنكر في زيّ سائق، انتحل شخصية سائق بديل لسائق كبير العصابة، لانشغال السائق في مراقبتي؛ سيدخل عصمت، يعلن عن مكاني الفعلي الذي أتواجد به مما يعطيهم مصداقية في كلامه، يخبرهم أن لابد من تغيير مكان الحقيبة، يأخذ عصمت الحقيبة وحارسها لمكان آمن، نفس المكان المحدد له الممتلئ برجالنا، يقضون على حراس الحقيبة، وننتهي من هذا الكابوس.

بدأت ساعة الصفر، كل منا نفذ دوره كما هو موجود في الخطة ونجحنا في سرقة الحقيبة ولكن...

****

أن تعود للخلف أمر في غاية الصعوبة، تنسى ما جرى لك، تتذكر لحظتك هذه فقط سلاح ذو حدين، بعد الكبر تصبح طفلًا شيء غير مقبول أحيانًا، إنما مع عصمت الأمر اختلف، حبه لسرور جعل منه طفلًا لا يميز الأشياء فجميعها رائعة، مقبولة، لا يكره أحد، يجلس معي يضحك، يبكي، يصمت، يحكي، في آن واحد مما جعلني أشعر أنه ليس أخي الذي أعرفه، هذا الرجل لا صلةَ به من قبل سوى أنه يشبه فقط.

ابتسمت لها عندما تذكرتك يا أمي، أعجبت من مدى تأثيرك على والدي فقلت لدكتورة أمنية:

_حقًا إن هذه أمي التي أعرفها، لها تأثير غريب على من حولها، في لحظة تجعلهم أناسًا مختلفين، أكبر دليل إني معكِ الآن.

قامت من مكانها، جلست بجواري، وضعت يدها على يدي، أخبرتني أن قصة عصمت وسرور جعلها ترى الحب من منظور لم تره من قبل فسألتها أي منظور فأجابتني إن الحب الحقيقي أن تصبح طفلًا لا فيلسوفًا أو مخترعًا لكن إذا أردت أن تستمتع بالحب عليك أن تبدأ حياتك من جديد، تصير حياتك بلا ماضٍ، لا تشغل بالك بالمستقبل، تستمتع بحياتك لحظة بلحظة.

سألتها بعد الوصف والتحليل عن الحب، كيف كان تأثيره على أبي بسؤال راودني كثيرًا هل هي رأت أمي، هزت رأسها بنعم فكان السؤال الطبيعي متى وأين و...، ضحكت ضحكتها الناعمة المثيرة ورفعت يدها في وجهي حتى أتوقف عن ملاحقتي لها بعلامات الاستفهام، قالت:

_اهدأ.. اهدأ سأقول لك بعدما تعرف المناسبة.

حكت لي عن يوم غير عادي في حياة عصمت، ملامحه الطفولية تحولت لملامح رجل كهل في أرذل العمر ضعيف، هزيل، ملابسه تكاد لا تعرفه ألوانها من الأتربة التي عليها فسألته عن السبب أثناء محاولتها تنظيفه فقال لها أنه يمر بيوم حزين، آخر أمل له دفن مع جثمان عم نشأت الرجل الوحيد الذي سيقربه من سرور، قص لها ما دار معه طوال اليوم، حزنت عندما علمت بنهاية أطيب رجل سمعت عنه.

حاولت أن تبدل حاله، تساعده أن يستعيد فرحته الغائبة فقالت له عن قرب ارتباطها بزميلها رأفت شهاب، تبدلت ملامحه كأي طفل عندما يضحك والدموع في عينيه، ينسى حزنه، آلمه، فقال لابد أن يراه، يتعرف عليه ليعلم كل شيء عن زوج أخته لكن بعدما استطاعت أن تسعده صراحتها دمرته فور علمه أن رأفت لا يعرف عنه شيئًا، لم تصارحه أن لها أخًا أكبر منها اسمه عصمت، هذا حسب الاتفاق منذ زمن مع عائلتها.

رحل بدون أن يسلم أو يستأذن حاولت أن تستوقفه، لكنه رحل بعد أن طمأنها على سلامته، أخبرها أنه يريد أن يستريح لشعوره ببعض الإرهاق من زحمة أحداث اليوم.

سرعان ما ظهر لها في الصباح بحال غير الحال، الفرح، التفاؤل يتوهجان منه، أخبرها أن سيرتبط بسرور اليوم ويريدها معه لأنها أهله، هنا شعرت بغصة في قلبها، في نفس اللحظة التي أنكرته، تنصلت منه أمام خطيبها

وعائلته هو ما زال يعترف بها أمام سرور وعائلتها الجدد، ذهبت معه حسب الميعاد، هنا قابلت لأول مرة سرور، عبد الرحمن، وسمة، الدكتور ساري العايدي، تعرفت بهم، شعرت أنهم أهله لا أهل سرور فقط، بعد إملاء عبد الرحمن شروطه اصطحبت سرور لتزينها لليلة عرسها، كانت معهم وسمة، لفت انتباهها وعي سرور، إدراكها بما يدور حولها، في لحظة منفردة معها صرحت لها أنها تعلم أن عصمت عمره قصير، يريد أن يتحدى العالم بها، يقلص الفارق، يستبدل نتيجة اللقاء من اثنين لا شيء لواحد لكلا الطرفين، هو سيستسلم لمرضه، تنتصر هي على مرضها، إن كان مرضه هزمه لا يريد أن تكون هذه نهايته، صارحته أن حياتها معه سواء أكانوا أحياءً أم أمواتًا، وزواجها هو نوع من الارتباط أمام الله حتى يجمعنا في آخرتنا.

احتضنتها، حاولت أن تطمئنها، تمنت لهما العمر الطويل وألا يحرمهما الله من بعضهما، لكن سرعان ما صدقت سرور، دخلت أمنية في غيبوبة دامت ثلاثة أشهر، استغربت من كلامها، سألتها أن توضح كلامها ففاجأتني بقولها إن عصمت قتل على أيدي والد وسمة.

***

قُتل عصمت أثناء تنفيذ العملية برغم نجاحه في الشق الأول من الخطة، إخراج الحقيبة من المخبأ؛ في طريقه لتنفيذ الشق الآخر اعترضته سيارة

مسلحة حاولت إيقافه فلم يستجب لها، استطاع مراوغتها، هرب منها فوجد سيارة أخرى مسلحة في انتظاره حاول تفاديها لكنه اصطدم بإحدى أعمدة الإشارة في الطريق مما جعلته ينحرف عن الطريق، سقط من أعلى الهاوية، تقلبت سيارته أكثر من ثلاث مرات، انفجرت، مات جميع من فيها، تفحم جسد عصمت، حرق معه دليل إدانة الثعبان وأصبح حرًا طليقًا.

جزء من الخطة مراقبتي ومراقبة عصمت عن بُعد، مراقبة عصمت هي من روت لي ما حدث، بعد تفكير طويل، تعددت الأدلة استنتجت أن الثعبان هو من أحبط خطتي، أراد أن يحصل على الحقيبة قبل أن أصل لها، للمرة الثانية أفقد شخصًا عزيزًا لدي، للمرة الثانية أفقد الحصول على أموالي لمساعدة سرور والفاعل واحد هو عدوي، عدو عصمت، سرور، وسمة، وكل من حولي، جعل حياتي وحياته على المحك لا يوجد حل آخر، لكن ما زال هناك حاجز يمنعني من هذه المخاطرة، هي سرور فأنا ما زلت قلقًا عليها، لم أفِ بوعدي لها، لم أوفِ بوعدي لعصمت بنقل قلبه لسرور لأن جسده أصبح رمادًا.

ذهبت للدكتور ساري أخبره إننا فقدنا القلب الذي نعتمد عليه في عملية سرور، سنفقدها إذا علمت بذلك، تفهم وأرسل لعودتها إلى المستشفى للمتابعة، خوفًا من تدهور صحتها، أخبرها أن زوجها سافر مجبرًا لتدبير أموال سفرهم، أخبرني أن الأموال مطلوبة بشكل ضروري، علينا إيجاد القلب من متبرع آخر يحمل نفس فصيلة الدم، يكون حديث الوفاة

من ضحايا الطريق السريع والحوادث المتنوعة، إذا لم نجد هنا سيبحث هو بنفسه في أمريكا، لكن هناك كل شيء بمقابل مادي، هذا سيتطلب أموالًا إضافية، دعونا الله أن ييسر لنا الأمور، أتت وسمة تسأل عن الدكتور ساري فوجدتني معه، كانت تريد أن تواسيني في صديقي بعدما وصلها الخبر، سألتها من المصدر فلم تجب، سألت عن ملابسات الحادثة، انتظرت إلى أن تركنا الدكتور ليتفقد مرضاه، أخبرتها أن والدها وراء قتله ولن أتركه، طلبت مني الهدوء، نذهب لمكان نجلس فيه نتحاور، حتى تفهم ما يدور حولها، سردت لها قصتي من بدايتها قبل أن أراها إلى هذه اللحظة بدون خوف أو مراعاة لتركي بعدما تعلم حقيقتي، صارحتها بأني سأنزع قلب والدها أعطيه لسرور عوضًا عن زوجها، حزنت، خيبة الأمل استحوذت على ملامحها ثم قالت:

_أنت فاكر نفسك بريء؟ طريق الشر والخير اختيار مش إجبار، أنت اللي اخترت، محدش غصبك، طاوعت نفسك من أول اختيار، عايز دلوقتي تبقي ضحية؟.

_طريق الخير كان مسدود، صعب استمر فيه.

_كل المكافآت نتيجة لمجهود، تحدي المستحيلات، اللي معدنه أصيل هو اللي بيصمد للنهاية.

_دي آخر مرة أمشي فيها، بعد قتل الثعبان هرجع زي ما كنت.

_قلها زمان أبويا وأديك شايف بيعمل أية، بلاش تزود ذنوبك بذنب جديد.

_لازم الثعبان يموت عشان أضمن لسرور وللعالم كله يعيش بسلام.

_أبويا مش هيموت، لو قدرت وعملتها سلالته وتلاميذه عايشين، هتقدر تقتلهم كلهم؟ طاب لغاية امتى؟ حط أيدك في أيدي ندور على حل لسرور ونعيش سوى بالحلال ونبعد عن الحرام.

_وموت أبويا وعصمت؟!.

_ربك كبير هو المنتقم.

_مستحيل أسيبه يعيش بعد اللي عمله معايا.

_وحبنا يا عبد الرحمن؟.

_أنا عمري ما حبيتك.

أصعب اللحظات عندما تصبح حياتك حرب غير متكافئة الفرص، تتلاقى سلسلة من الهزائم، تشاهد موت أحبابك واحد تلو الآخر، لم يتبقَّ الكثير، لابد أن تنتصر للحفاظ على ما تبقى، أما قلبي فهو السبب الرئيسي فيما أنا فيه، كان لابد أن استأصله لأصبح حرًا من كل قيود، من الأفضل الابتعاد عن وسمة حتى تستطيع أن تحيا حياتها البيضاء كما تريد بدون رقع سوداء.

بحثت عن عنوان أمنية عزمي لتعلم بما حدث لأخيها رغم دفنه في مقابر الفقراء بجوار عم نشأت بعد أن تأكدت الشرطة من عدم معرفتها

هويته؛ أصبحت جثته مجهولة المعالم، الأوراق المحترقة لديه مزورة، لا تدل على شيء.

صعقت عند سماع الخبر، أغمي عليها، دخلت في غيبوبة لا أعلم متى ستفيق منه لم أجد أحدًا أحادثه سوى سرور؛ فذهبت إليها محاولًا إخفاء ملامحي الحزينة، أصبرها على غياب زوجها جلست معها لأقتبس منها بعض الطيبة وصفاء النفس، حدثتها عن طفولتي وحبي الشديد لوسمة وحرصي عليها، حدثتها عن أمنياتي في السفر بعيدًا مع وسمة في جزيرة لا يرانا فيها أحد، نعيش ما تبقى لنا في هذه الحياة، لم تقاطعني، كانت مبتسمة وبعد الانتهاء من كلامي وجدتها تخبرني أن عصمت في آخر ليلة معها كان يحدثها عن أمانيه وما يطلبه من هذه الدنيا لاحظت سرور التشابه، قالت كم أنتما متشابهان!.

من المؤسف أن عائلة عصمت أنكرته، لم يقيموا له العزاء لإثباته إنه ابن عاق بطريقة موته، إن أشاروا لجثته سيصبحون أهل المجرم، تلاحقهم وصمة العار، من الممكن أن يتسبب في رفض عائلة رأفت شهاب الارتباط بابنتهم لذلك انتهت حياة عصمت، كأنه لم يكن.

في زيارتي لأمنية حتى أطمئن عليها وجدتها بداخلها ثوره لرد اعتبار أخيها والأخذ بثأره، برغم أنها فتاة لكني شعرت أني أمام ألف رجل لم تهدأ حتى وعدتها أنها ستشاركني في ذبح واستئصال رأس الأفعى، لكن بعد تدبير مصاريف سفر سرور.

ذهبت لأصدقائي وعملائي، لجأت إلى منادٍ ليساعدوني في جمع التبرعات، زرت جميع المستشفيات بالإسكندرية ليخبروني بالحوادث حتى أتمكن من الحصول على قلب لسرور، أعطيتهم عنوان مستشفى المواساة في حالة وجود القلب المطلوب.

أثناء زيارتي لسرور لأطمئن عليها، أنتظر الخبر من أي مستشفى عن وجود الحالة، وجدت موظف الاستقبال يطلب مني الذهاب لمستشفى الأميري الجامعي التابعة لجامعة الإسكندرية لأنها أرسلت نداء عاجلًا لحضوري إليهم فورًا، ذهبت إليهم مسرعًا لعلهم وجدوا حالة بالمواصفات المطلوبة سألت عن سبب النداء أبلغوني أن هناك حالة حرجة لا تريد أن ترى غيري، دخلت الغرفة وجدتها وسمة ملقاة على السرير، بجسدها تشوهات وبعض الكسور سألت عن السبب أخبرتني أنها ذهبت إلى القاهرة حيث يوجد والدها تصارحه بما عرفته عنه، لم ينكر، حاول إقناعها أن تنضم له، نصحها دائمًا عند الاختيار لابد أن تختار الأفضل، الأقوى، أن تنظر حولها لتعرف حقيقة كلامه، تتحقق منه، فلا مكان لأصحاب العقيدة الضعيفة، فنظرت حولها وجدت أني الأقوى، أفعال والدها معي ليست إلا ضعفًا منه لعلمه مدى قوتي، من أجل ذلك تركته، قررت أن تقف بجوار الأفضل والأقوى، ذهبت للشهر العقاري، تنازلت لي عن منزل والدتها بيعًا وشراء، في نفس الوقت تبرعت بقلبها لسرور في حالة وفاتها، كانت سعيدة للغاية بفعلها ذلك، لشعورها أن هذه الطريقة الوحيدة التي ستقربها مني

وتأكد حبها لي، هذه الطريقة ستجعلني أصرف النظر في قتل الثعبان ليس لأنه والدها بل من أجل عدم فعل ما يريده منا، ويعم القتل على وجه الأرض.

استقلت أحد السيارات الأجرة، طلبت منه الذهاب للإسكندرية، ظلت تلح عليه في كل لحظه بالإسراع، إلى أن اقترب من دخول الإسكندرية، لكن لم يتمالك السائق السيطرة على سيارته في إحدى المنحنيات لتهوي سيارته في الصحراء، نعم أنها عانت قليلًا من بعض الآلام لكنها الآن تشعر بالتحسن والسعادة لرؤيتي مرة أخرى، طلبت مني أن أناولها حقيبتها مدت يدها بداخلها، أخرجت التنازل عن الفيلا، نظرت للتنازل وجدت أنها نقلت ملكيتها باسمي، أعطتني ورقة أخرى نظرت لها وجدتها تبرع بأعضائها للمدعوة سرور نشأت، أعطتني ورقة أخرى بل إطار ورقي نظرت له وجدتها صورتي التي بحثت عنها عمري كله وقلبت حياتي رأسًا على عقب، أدركت كما من الممكن لكلمة تغير مسار حياتك من الممكن أيضًا ورقة صغيرة الحجم تستطيع أن تغير هذا المسار، تسرد قصة طويلة، تكشف لك من الصادق ومن الكاذب، كم تمنيت هذه اللحظة، وتخيلت نفسي عندما أراها، لقد كانت تخيلاتي في مكان غير المكان ووقت غير هذا الوقت، انتبهت لوسمة تقول بتنهيده مريرة:

_الفيلا هتعوضك عن ممتلاكاتك، أنا فدى أبوك وصحبك إنما شايف الواد اللي في الصورة يا عبد الرحمن؟ عشت عمري كله أدور عليه، لو ليا خاطر عندك ترجعوا ليا، تقولوا أني بحبه أوي، حياتي وحشه من غيره.

دمعت عيناي، ما زلت ممسكًا للصورة، لم أصدق هذه اللحظة، مسحت دموعي، نظرت لوسمة ثم قلت:....

****

_عندما ينكسر لديك شيء أعلم أنه لن يعود كما كان، قتل عصمت كسرنا جميعًا، إلى الآن لن نستطيع أن نعود لعهدنا السابق.

_ما نوع التغيير الذي أصابك، هل لعبد الرحمن نصيب؟.

_نعم عبد الرحمن أصابه شيء ما في حينها لم أفهمه، ظلمته أثناء الحكم عليه، أما أنا تبدل حالي، اشتهيت حياة أخي، السير على خطاه حتى أتمكن من حقيقة ما أعرفه عنه هل هو مظلوم أم ظالم.

نظراتها انكسرت بفعل الاصطدام بحائط خرساني أو بفعل الواقع المرير، جلست أمامها عاجزًا عن تفسير انكسارها أو كيفية إسعافها فنظرت لها صامتًا منتظرها تسعف نفسها بنفسها فتكلمت بصوت خافت عن إحساسها بالتقصير نحو أخيها، إلى الآن لم تعرف أين دفن، في اعتقادها هذا هو سبب غيابه عنها ولا تراه إلا في الصور.

حاولت أعرف كيف تبدل الحال، هل معناه أنها تعلمت الاحتيال مثل أخيها؟، لما ظلمت عبد الرحمن؟، ماذا فعل بعد موت أبي؟، لكن نرجس اقتحمت علينا القاعة:

_بحثت عنك يا أمي في كل مكان لم أجدك، لم أتخيل أنك هنا مع الفتى الغربي.

_أود أن تعلمي بسر لم يعد سرًا من الآن.

_خبأتِ سرًا عن ابنتك! كيف؟.

_هذا ابن أخي، هذه قصة يطول شرحها أما أنا الآن أشعر ببعض الإرهاق.

ذهبت عمتي لغرفتها، جلست ابنتها لتفهم ما صحة الخبر، أخبرتها سريعًا بموجز قصة أبي، عندما وصلنا لحادث موته انتاب أمها شعور بالاختناق، تذكرته، تذكرت كم عانت من صراعات جسدية ونفسية أثر موته.

تألمت نرجس عم رويت لها، صرحت لي منذ طفولتها كانت تبحث عن شيء مفقود يوضح لها سبب شرود أمها وحزنها أحيانًا، لم تجد، أما هي كانت تريد أن تجد مدخلًا للقاهرة؛ القاهرة التي لا توصف إلا بالازدحام، كم من غزاة استعمروها، دائمًا كانت تشعر هناك وجه آخر للقاهرة هي لا تراه، الآن وجدت الطريق المؤدي لها، نشأت، مريم، عبد الرحمن، وسمة، هم مفتاحها؛ عندما انتهت من الكلام تذكرت عندما سألتها لماذا لم تعِش أو بمفهومها تدخل القاهرة كمثل هؤلاء الناس؟، عقدة شفتيها حينها، قالت إنها تريد أن تدخل القاهرة من بابها الأصلي تريد الباب الكبير كمثل أجدادها الذين عاشوا وماتوا عشقًا في ترابها، لكن إلى الآن لم تجد الباب أو المفتاح المؤدي لهذا الباب، قاطعت شرودي قائلة:

_سرور هي المفتاح يا آدم لازم أشوفها، أنا لازم أمسك المفتاح ده بأيدي يا آدم.

استسمحتها في حديث لأمر هام يشغلني منذ فترة، انتبهت لي وأنصتت، فجأة توقف الكلام في حلقي، نسيت المقدمة التمهيدية لكلماتي، نظرت لي مستغربة، نظراتها متسائلة هل هناك أمر ما؟، هل أعاني من شيء؟ فأجبتها

عن سؤال يدور في بالها، صارحتها بحبي لها من قبل أن أراها أثناء حديث والدها عنها وهم مسافرون، لأول مرة أشعر بالانتصار في مواجها مباشرة معها، أرى خجلها، هروبها من نظرات عيني لها، فوقفت أمامها وهي جالسه، سألتها:

_هل تقبلي حبي لكِ؟.

أمسكت يدها، قبلتها، فوافقت بعيونها على طلبي، سألتني هل أوافق على سفرها معي لترى أمي فرحب بها ففرحت جدًا، انتابني نفس شعورها بمجرد ان أدخلت السعادة لقلبها.

نهضت من مكانها مسرعة إلى غرفتها، سألتها مستفسرًا إلى أين هي ذاهبة، أخبرتني لا بد أن تستأذن والديها وتستعد لسفرها معي، لا تريد إهدار الوقت وتستثمره في جمع أغراضها، أشارت لها بيدي كما يفعل معنا والدها لنذهب إلى المائدة، ذهبت لغرفتي ربما أجد إجابة لسؤالي الذي طرحته لعمتي ما معنى تبدل الحال لها ولعبد الرحمن، هل عمتي أجرمت مثلهم؟.

****

ذهبت مسرعًا للدكتور ساري طلبت منه سرعة نقل قلب وسمة لحافظة الأعضاء المثلجة وسرعة إجراءات السفر لسرور، وقبل انتهاء اليوم مصاريفها ستكون بين يده، بدون تردد تحرك الدكتور ساري إلى مستشفى الأميري لإجراء العملية لوسمة، ذهبت لأمنية عزمي التي ما زالت تحت تأثير الصدمة أطلب منها مساعدتي لسرعة بيع الفيلا، بادرتني بأن لا أشغل بالي بذلك، إنها ستتولى الأمر، أرسلت إلى خطيبها، عرضت عليه شراء فيلا صغيرة سعرها مناسب غير قابل للتفاوض، هذه فرصه العمر لا تعوض، في هذا التوقيت كان الدكتور شهاب يبحث عن فيلا لابنه رأفت ليتزوج فيها، أموالهم حاضرة، تم بيع الفيلا بأسرع مما أتخيل، اشترط عليهم أن يتركوا لي أصغر غرفة أحمل بداخلها أغراضي حتى أعود، استرداها، بعد ذلك تصبح الغرفة ملكهم، تم الاتفاق.

مبلغ الفيلا بالكامل وضعته في حساب السيدة سرور نشأت، طلب الدكتور ساري مني مرافقة سرور، وعدته عندما أنتهي من بعض الخطر الذي ينتظر سرور وأمثالها سأسافر لها، فأنا ما زلت قلقًا لشأنها، قلبي لن يستريح طالما الخطر ما زال موجودًا، الدكتور ساري لا يعرف بما يدور حولنا لكن بموت عصمت ونقل قلب وسمة شعر أنّ هناك آمرًا ما، لكنه لم يتدخل أو يسأل فكان يهز رأسه أثناء حواري معه، عندما انتهيت طمأنني على سرور، أنه سيبذل كل جهده حتى تنجح عمليتها، إن تأخرت عليهم سيرعاها، سيضعها في عينيه فهي بمثابة أخته، وضعت ثقتي به

فمواقفه التي جمعتني معه تجبرني على ذلك، دخلت على سرور قبل صعودها الطائرة المجهزة لنقلها لأمريكا وجدتها نائمة في سريرها فقبلت جبينها، تركتها لأخرج، فاستيقظت ونظرت لي، سالت دموعها على خدها، قالت:

_خلاص أنا مش هشوفه؟.

_أنتي عارفة ظروفه وحشة، عمل اللي عليه، بعتلك الفلوس، لما يجهز فلوس سفره هيحصلك.

_النبي تقوله أنّه وحشني قوي، بحبه، مش هعمل العملية غير وهو جنبي.

_هو عارف إنك بتحبيه، عمل كل ده عشانك، أنا متأكد دلوقتي أنه سمعك، هيكون معاكي في العملية.

_آخر طلب يا سي عبد الرحمن عايزة حاجة تفكرني بيكم، نفسي في صورة.

_المهم القلوب تبقى فاكرة بعض مش الصور، قلبي عندك يا سرور، لو طال عمري هنتقابل، أما الصور هييجي عليها يوم تكتشفي أنها كاذبة لأننا النهارده اتغيرنا عن أمبارح، بكره مش عارف هنكون مين.

أعطيت لها مفتاحًا لصندوق خشبي ورثته عن أبي، قلت لها ستجدي به ما تبحثين عنه إذا ضللت بعدنا ستجدين ضالتك داخله، ودعتها، انتظرت حتى اختفت طائرتها، عدت لأمنية لأبشرها بنجاح حلم عصمت، سافرت سرور برفقة الدكتور ساري، قد بدأت حالتها تتحسن، لكن حالته تغيرت كثيرًا عم قبل، وجدتها تخطط، ترتب للإيقاع بالثعبان بشكل جنوني، نظرت

لها، لم أجدها، وجدت أمامي رجلًا بشعًا يشتهي الدماء، إشعال النيران حوله لتعذيب ضحاياه، بدون أن نقصد استطعنا في لحظة تبديل حياة فتاة حالمة طموحة بمستقبل منير لمجرمة تهوى الشر، أخطأنا يا صديقي في اعتقادنا أننا من سيدفع ثمن أخطائنا، لم ندرك أن هناك قلوبًا ستذوق ما صنعناه، ضاعت مني وسمة، الآن أرى أختك ماضية في طريقنا، كانت محقة وسمة في كل شيء، نحن الخاسرون بكل تأكيد.

انتظرت بالإسكندرية لمدة أسبوع حتى أرسل الدكتور ساري لمستشفى المواساة بنجاح العملية لسرور، مرت ساعات الخطر بخير، قريبًا جدًا ستعود للحياة في أفضل حال، من خلال عنوان المرسل أرسلت إليه أشكره وأن يواصل مراعاته لها، استمرت مراسلتنا لثلاثة شهور كنت أطمئن من خلالها على تحسن حالة سرور وأتمنى لها أن تقف على قدميها حتى تستطيع الاعتماد على نفسها في مواجهة مصيرها من الثعبان إن فشلت أنا في ترويضه لأنه يريد الانتقام لموت ابنته، لعلمي أن الثعبان يريد التخلص مني أولًا لم أسافر لسرور حتى لا أسهل عليه قتلنا في وقت واحد، استطعت مراوغة وتمويه رجاله حتى لا يلتفتوا لسرور وفجأة جاء المرسال من الدكتور ساري غير حياتي، قلبها رأسًا على عقب فأخبرني أن سرور حامل في شهورها الأولى، شعرت حينها بالخطر الحقيقي على جنين عصمت، قلبي تمزق عندما غزت عقلي فكرة تكرار حياتي إذا تمكن الثعبان من قتلي والوصول لأمه.

أرسلت للدكتور ساري عندما يتأكد من سلامة سرور أن يبلغها حقيقة موت زوجها، أن لا بد من المولود يأتي يرى أمه وأباه يعيشان حياة مستقرة، ذلك سيتطلب زواجه من سرور وتضحية منه في إعطائهم بعض الوقت وتضحية منها في إتقان دور الزوجة المحبة لزوجها ليستقر حالة مولودها.

هذا المرسال لم أنتظر رده، سافرت فورًا إلى القاهرة لأمنية عزمي بعد تركها هي وأهلها الإسكندرية حزنًا على عصمت والإقامة بجوار ابنتهما، قابلتها لأشرح صدرها بوجود مولود لعصمت، كنت أظنها ستفرح بالخبر لكنها دخلت في نوبة صراخ، تشتت، تمتمت باسم الثعبان:

_علي بركات مش هيسيبه يعيش، ده أمه عايشه بقلب بنته، عملت العملية بفلوس مراته.

نظرت لي، أمسكت ساعدي، أكملت:

_خلاص أنا لازم أخلص من علي بركات كل دقيقة تمر دلوقتي فيها خطر على سرور، وما فيش تأجيل.

لم أعترض على كلامها، أيقنت ان لديها الحق، لكن ما يخفي عنها أن أردت قتله منذ ثلاثة شهور لقتلته لكني لا أريد، خشيت أنها تعلم ما بداخلي استدرت، أعطيت لها ظهري، ووجهي في الأرض، فقالت لي:

_مالك في أيه؟.

_مافيش بس أنا لازم أعمل حاجة قبل ما أقابل علي بركات.

_هتعمل أيه؟ أي حاجة مش مهمة، موته هو المهم دلوقتي.

_لا في حاجة أهم، أنا أديت سرور مفتاح لصندوق فيه نسخة من تنازل وسمة للفيلا والتنازل لأعضائها لها، لكن ده مش كفايا لازم كمان أحكي اللي حصل لابن عصمت، يعرف الحقيقة والصح فين.

وقفت أمامي، نظرت حولها باستغراب، قالت:

_ده مهم؟.

_ده حق ابن عصمت علينا أنه يعرف هو جيه أزاي، مين أبوه، حق وسمة علينا أن سيرتها تفضل موجودة بينا.

وافقتني الرأي، كتبت كل ما أعرفه ورأيته؛ قبل الانتهاء أمسكت بالملف الخاص بي وجدت عدة صور تجمعني بمواقف مختلفة.. هنا مع أبي وصورة أخرى لي أثناء استخراج بطاقتي الشخصية، هنا مع أصدقائي، هذه لإرضاء سيدة أحبتني على زوجها وهذه لوضعها أعلى مكتبي، نظرت لهم جميعًا في وقت واحد، اكتشفت أني خُدعت كما استطعت أن أخدع من رآهم، أدركت أن جميع الصور التي كنت على استعداد لها كانت كاذبة إلا هذه الصورة التي جمعتني مع حبيبتي الوحيدة وسمة، وضعتهم بجوار بعض أما صورتي مع وسمة سأتركها بمفردها لأحد بعدي يبحث عن أكثر صورة صادقة ممكن أن يراها في حياته، وضعتها وسط أوراق وسمة مع مذكراتي، قبل إغلاق الصندوق أريد أن أقول يا عزيزي أو عزيزتي كن على يقين أننا سنتلاقى يومًا.

الفصل الأخير

هل تعلمي يا أمي أن قلبك الذي يسكن أحشاءك هو أنقى قلب على وجه الأرض؟ هل تعلمي أن قلب أبي أحترق ليعيد آمالك في الحياة؟، الآن فهمت لماذا كنتِ تبحثين، تقلبين بين صوري عسى أن تري أبي الذي افتقدتيه، ولم تحصلي على ذكرى له، خاب ظنك بي، أدركت أن أبي مات، لن يعود لا من خلال الصور، لا من خلال ابنه، ففضلتِ خلال الثلاثين عامًا أن تتخيليه، تعيشي في عالمك الوهمي الذي لا وجود له سوى في خيالك، سامحيني على خطأ ارتكبته دون أن أعلم أو أقصد، أعدك أن أعوضك حرمانك من الوالدين، فقدانك أعز الرجال الصامدين، لن أعود لحياة اللهو والضياع الماضية.

كنت أبكي عندما دخلت عمتي غرفتي، فلم تلحظ دموعي، أخبرتني بموافقتها وموافقة الدكتور رأفت بالسماح لنرجس مرافقتي إلى لندن بعـدما صارحته بحقيقة قرابتي لها، هو في التراس يريد أن يقابلني، نظرت لها بدون أن أبدي أي اهتمام لما قالت، كأني لم أسمعها، قلت:

_انتهيت من قراءة المذكرات، لكن حقًا هذه النهاية؟، انتهت!؛ لا يهم رأي القارئ بالنسبة لكم؟.

_حقيقة أمك، ترك والدك لكم الآن تفهمته ماذا تريد؟.

_أين عبد الرحمن الذي وعد أن يقف بجانبنا عوضًا عن أبي؟ أين والد وسمة قاتل أبي؟.

_عليك الآن ألا تلتفت للخلف، تركز على ما هو آتٍ.

_من حقي أن أدرك ما يدور حولي، أريد النهاية.

أغلقت الباب علينا، استندت عليه بظهرها، كررت:

_النهاية.. النهاية؟!.

ثم دمعت عيناها وهي تصف النهاية في حادث قديم عندما سألوا رجلًا حكيمًا عما هي النهاية فنظر إلى الجبل، أشار نحوه، قال وراء الجبل العالي، فذهبوا جميعًا باحثين على أعلى جبل ليشاهدوا النهاية، لم يأتِ منهم أحد من تلك اللحظة، أضافت أن كلنا نبحث عن نهايتنا حتى من قبل ما نبدأ، سؤال يراودنا، إذا جئنا لتمنيناه لو تأخر، تعثر، ضل الطريق، ثم نظرت لي، سألتني:

_لمَ تريدها؟ حياتك في بدايتها استمتع بهذه اللحظة ربما تكون النهاية تنتظرك خلف هذا الباب.

_من حقي ذلك.. أريد أن أعود لأمي بطلًا مثلهم.

هزت رأسها بالرفض، نظرت تحت قدمي، سردت أصعب اللحظات في حياتها عندما أجبرت عبد الرحمن المتردد، كأنه أصبح شخصًا آخر بنفس هيئته، لا تعلم ما بدل حاله، هل هو خائف من المواجهة؟ هل اشتراه الثعبان وباع دم أبيه وصديقه؟ ألف سؤال دار في ذهنها مما جعلها غير واثقة فيه، أصرت على الذهاب معه لقتل الثعبان، بترتيب مسبق مع أصدقائه الحياديين الذين أبلغوا الثعبان بموعد لقائهم به كما أبلغوا عبد الرحمن وعمتي بمكانه.

وجدته جالسًا فوق كرسيه الضخم، لم يهتز أو يرتبك لرؤيتهما، كان مبتسمًا متصنع السعادة على وجهه فسأل عبد الرحمن:

_خلاص يا عبد الرحمن عايز تقتل اللي رباك وعلمك، خلاك راجل وسط الناس؟.

_أنت ضيعتني.. أنت لازم تموت.. يارتني موتك من زمان.

ثم أخرج مسدسه بأيدٍ مرتعشة في حذا ساقه، كانت أمنية بجواره تنظر إليه مستغربة، لا تصدق ما تراه من تراجعه وخذلانه أمامها، بعد تردد ظاهر، واضح على وجهه رفع يده، صوب مسدسه في وجه علي بركات؛ ما زال الثعبان لم يهتز أو يطلب العفو، صرخت أمنية في وجه عبد الرحمن طالبة منه القضاء عليه، لكنه لم يفعلها، جبينه يتصبب عرقًا، احمرت عيناه من حرارة دمعه المتساقط على خديه، فجأة سقط المسدس من يده، ظهرت أسنان الثعبان مبتسمًا فأسرعت أمنية لالتقاط المسدس قبل التقاط علي بركات له، لكنه لم يفعل، ظل جالسًا على كرسيه مبتسمًا.

سألت أمنية عبد الرحمن لماذا لم يقتله؟، وصفته كما وصفه أخوها من قبل بالنذل الجبان، انكسرت عيناه أرضًا، لم يدافع عن نفسه، كفحيح الأفعى سمعت صوت علي بركات يسرد ما دار بين عبد الرحمن ووسمة في المستشفى على سرير مرضها، قائلًا:

_طبعًا لما وسمة طلبت منك ترجعلها زي زمان وبنفس روح الطفل اللي في الصورة أنت قلت لها أنك خلاص مش هترجع للطريق اللي أنا مشيتك فيه،

وعدتها مهما حصل مش هتقتل ولا تسرق بس هي تفضل جنبك، متسيبكش أبدًا، هي كمان وعدتك أن عمرها ما هتسيبك حتى لو الدنيا أخدتها منك هتفضل بروحها جنبك.

نظر له عبد الرحمن مستغربًا لما يسمع، سكت الثعبان لبُرهة، ثم أضاف لعبد الرحمن أن وسمة تركته، الآن تنعم بحياة أفضل، لا تراه، لا تشعر به، هز عبد الرحمن رأسه بالرفض غير مصدق الثعبان وسأله بصوت متحشرج:

_أزاي عرفت اللي دار بينا وأنا متأكد إنك مكنتش موجود معنا؟.

_أنت نسيت إن أحنا الأتنين حبينا جسدين بروح وحدة؟ مكنش المفروض نحبهم يا عبد الرحمن، هو ده نفس اللي دار بيني وبين نجاة، لما رجعت بالدكتور ملقتهاش ولا لقيت روحها بعديها.

_أنت كداب وسمة معايا ومش هتسيبني.

ضحك الثعبان، ضحكة صداها سمعه سكان الأرض جميعهم بعضهم فسره ببرق في السماء، بعضهم فسره بعاصفة من الرياح اصطدمت بأعلى الجبال، إلى الآن لم يتوصلوا للتفسير الحقيقي، نظر لأمنية، رشق عينيه في عينيها، وصف عبد الرحمن بالمجنون، طلب منها أن تقتله لأنه تهرب من الخطة ووضع أخاها بدلًا منه وهو الذي كان مقصود قتله، نظرت أمنية لعبد الرحمن، صوبت المسدس نحوه.

****

دخلت نرجس على والدها، شارد الذهن، مازحته كعادتها ليستفيق من شروده:

_الرجل المدخن بشراهة كيف حاله؟.

_إذا سمعتك أمك صدقيني لم يمر اليوم على خير.

وعدته بأنها لم تفعل وتخبرها، لكنها تريد أن يساعدها في شيء محير، طلب منها ألا تتردد وتدخل في صلب الموضوع مباشرةً فسألته:

_إن كان هناك رجل لديه ما يخفيه عن الناس هل من الممكن أن يرتبط به أحد؟.

_إذا كانت أخطاؤه ليست بيده، ثمار جناها من أسلافه أو لأن المجتمع المحيط به فاسد، فأعتقد أن من حقه أن نعطي له فرصه أخرى يثبت فيها نيته.

_إذاً أنت ليس لديك اعتراض من ارتباطي بابن خالي آدم عصمت عزمي.

_كنت أعلم أنك تتحدثين عنه.

احتضنها، طلب منها أن تشدد حرصها على نفسها جيدًا فهو قلق عليها من الآن حتى تعود.

قبلته كثيرًا، وصفته بأعظم أب في التاريخ، تركته مسرعة إلى غرفة ابن خالها لتخبره بقبول والدها المبدئي عليه.

****

لم يفاجأ عبد الرحمن من فعل أمنية وهو ما زال منكسرًا، نظر لها، نظراتها عازمة على قتله، طلب منها أن تفعلها، تقتله لأنه يستحق القتل عندما انصاع لرغبات الثعبان كما هي تفعل الآن، ذكرها إنها أصبحت لعبة في يده، رد عليه علي بركات مدافعًا عن نفسه بالمستحيل قتله لسببين فالسبب الأول أنه الأب، المعلم، أن استطاع يقنعنا بالشر ممكن يعلمنا عكسه؛ سأل هل جزاء الأب والمعلم القتل بعد كبر سنه؟، السبب الثاني هو موت أعز الناس إليه فليس لديه ما يجعله يستمر في شروره، أما عبد الرحمن ما زال يبحث عن ذاته المفقود يسعى ليثأر لأبيه، لحبيبته، لم يطفئ ناره سوى الدم.

نظرت أمنية لعبد الرحمن وهي ما زالت مصوبة المسدس نحوه عندما طلب منها أن تفعلها لأن ليس أمامه سوى طريقين إما يصبح كعم نشأت جالسًا بجوار قبر حبيبته منتظرًا لحظة الذهاب إليها أو سيصبح كالثعبان يبحث عن الانتقام كما قال الثعبان، وهو لا يرغب في الطريقين، توسل لها أن تفعلها، حذرها من الثعبان أينما كانت فاللعب بنا غاية دوائه.

انتهت الدكتورة أمنية من السرد، تعبيرات الحيرة مسيطرة على وجهها، فمن يستحق الموت أو بمن تبدأ، ساد الصمت بيننا وأنا منتظر النهاية، ما هو قرارها الأخير الذي استقرت عليه لكن وجدت العرق أصاب ملابسها ووجهها بأكمله كأنها واقفة تحت صنبور ماء، عيناها زائغتان حائرتان ما

بين هنا وهناك، التشويق كاد يقتلني، أريدها أن تتوقف عن صمتها فسألتها:

_ماذا فعلتِ؟.

نظرت لي كأنها تراني للمرة الأولى، ظلت تحدق بي من أعلى لأسفل ثم قالت:

_هذه اللحظة لم أستطع أن أنساها، أمام عيني في كل وقت ومكان، كأن عمري توقف حينها.

كاد قلبي يتوقف وأريده أن يستريح، كررت سؤالي لها، نظرت بعيدًا عني، قالت:

_هذا السؤال أوجهه لك وأنتظر الإجابة منك.

اتسعت عيناي، أنا لم أتوقع منها أن تضعني بينهم هكذا، المسدس في يدي وأمامي عبد الرحمن والثعبان، وجدت الجاني والمجني عليه متساويين في الذنب، الجاني والمجني عليه مجرمان أفسدا في الأرض، قبل أن أقرر وأختار، سمعت صوتها:

_لو كنت مكاني ماذا كنت فاعلًا؟.

****

اصطدمت بأمها وهي خارجه من غرفتي، اعتذرت لأمها فقبلت الاعتذار، تركتها ورحلت، دخلت نرجس لغرفتي، والسؤال يراودني في أذني، ما زلت أشعر بمسدسها في يدي، كانت نرجس تشع فرحًا، خداها متوردان من السعادة، ظلت تحدثني عن استعدادها للرحلة، ماذا أخذت، ماذا تركت، لكنها انتبهت لعدم انتباهي لها فسألت عن السبب، أخبرتها عن قلقي وخوفي من رحلتي القادمة لأن عينيَّ الآن تريان الحقيقة كاملة، أخشى أن أقع في أخطاء وقع فيها السابقون، فردت ألا يهم الآتي طالما في يدها من تحب ستتحمل الصعاب؛ الخطأ، الصواب لحظة اختيار، من لا يدري ماذا يختار يسأل الآخر، هكذا تسير الأمور.

تظاهرت بالرضا، الاقتناع، لكن هناك شيئًا ما زال يشغلني، أخشى منه، لاحظته نرجس فسألتني مجددًا لماذا أنا مشغول؟، فأجبتها أني مستعد لمواجهة المستقبل بكل شجاعة لكن علينا ألا نلتقط صورًا لأنفسنا بعد اليوم.

_لماذا؟

_لأنها مخادعة، سجينة اللحظة ربما لا نستطيع التمييز بين الصور الصادقة والكاذبة.

_سنلتقط صورنا بأنفسنا، لا نترك مجالًا لمصور آخر يحدد لنا زوايانا وأماكن وقوفنا، إن وجدنا بين صورنا صورًا كاذبة سنمزقها، نتركها، لن نحتفظ إلا بالصور الصادقة.

انتظرت ردي لكني لم أستطع أن أعدها بمقدوري الابتعاد أو التمييز للصور الكاذبة إذا التقطها، فباغتتني بسؤالها:

_أنا مستعدة للرحلة هل أنت مستعد؟.

نظرت لها مفكرًا في السؤال، شد انتباهي الصندوق الخشبي والظرف الذي بداخله، أخذته، فتحته، وجدت عقد تنازل وسمة لعبد الرحمن للفيلا بيعًا وشراءً، وجدتُ عقدَ تنازلٍ من وسمة عن أعضائها الجسدية لسرور نشأت، وجد ثالثهما الصورة التي غيرت مسار حياة عبد الرحمن، حقًا كانت وسمة محقة في وصفها بأجمل صورة في حياة من يراها، رغم أصابها القدِم، الإطار الورقي كاد أن يتهالك لكنه ما زال محتفظًا بدفء اللحظة.

"في الأمام كعكة مضيئة بالشموع، في الأعلى الزينة المتلألئة، من اليمين طفل بريء وسيم يقف بجانبه، يظهر نصف وجهه الأيسر كاملًا عيناه واسعتان مبتسمة، ينظر لباقة من الزهور تسمى وسمة، يرتدي طاقية بيضاء يتدلى منها بعض شعيرات رأسه على جبينه، جلبابه أنيق، كأنه عريس في فرح شعبي، أمامه عروسه بفستانها الأبيض البراق، شعرها الناعم الطائر أعلى رأسها للخلف، كأنه يرسم فوق رأسها تاج الملوك، يتوجها على الحضور، تقف بجانبها الأيمن مبتسمة، ملامحها ممزوجة بالطابع الغربي والعربي معًا جعلني أشعر بأنها ملاك صغير واقف على قدمين عيناها يبدو عليهما اللون العسلي، يحرسهما رمشان عريضان متفرقان، كانت على شفتيها ابتسامة امتزجت بعنصر المفاجأة لوقوف حبيبها بجوارها".

حقًا صورة تستحق أن يضيع عبد الرحمن حياته في البحث عن الطفل المتصدرها.

نظرت لنرجس وجدتها واقفة على الباب مندهشة من أفعالي، رأسها مائلة يمينًا بعض الشيء، كأنها تسأل نفسها ماذا جرى لهذا المعتوه؟، عاودت النظر للصورة مرة أخرى أتأملها، عندما نظرت خلف الإطار الورقي وجدت مكتوبًا بخط يد عبد الرحمن، كأنه تارك خلف الصورة مقوله للذكرى، كاتب بنفس الحرف:

" أهدي لك صورتي حتى لا يضيع عمرك في البحث عنها..

أردت الخروج من الغرفة المظلمة ولم أفلح يومًا..

فوضعت بين يديك المفتاح لعلك تستطيع الخروج.."

بصوت عالٍ وجدتها تقول:

_الرحلة ستبدأ.. هل أنت مستعد؟.

_____[تمت بحمد الله]_____

_____[سيرة ذاتية]_____

الاســم: أحمد محمد سلطان علي

اللقــب: أحمد سلطان

الدولة: جمهورية مصر العربية

تاريخ الميلاد: 20 / 2 / 1988

مواليد: محافظة أسوان _ مدينة أسوان

العمر: 32 سنة

الهاتف: 01289209478 _ 01119816575

بريد الكتروني: soltan_2088@yahoo.com

المهنة: أعمال حرة

صور كاذبة

رواية

أحمد سلطان

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com